السعادة السوداء

مجموعة قصصية

تأليف

محمد السيد

سنابل للكتاب
٥ شارع صبرى أبو علم
باب اللوق - القاهرة
الإدارة:
(+202) 23 92 65 93
(+202) 01001094302
المكتبة:
(+202) 23 93 56 56
E-mail
Sanabil_bookshop90@yahoo.com
Ahmed_mmorgan@yahoo.com
Face: sanabil bookshop
المدير العام:
أحمــد مرجـان

السعادة السوداء

المؤلف:
محمد السيد

تنفيذ الغلاف
محمد سيد حسن

رقم الإيداع: ٢٠١٦/٢٢٩٩٣
الترقيم الدولى: 978-977-5255-27-3
الطبعة الأولى: ٢٠١٦
حقوق الطبع محفوظة

الإهداء

إلى أمى العزيزة.. رمز الكفاح والكبرياء

إلى أصحاب الأحلام الممنوعة.. فى زمن الحب المحجوز بالحزن مسبقا

أهدى كل هذه الآمال المرتفعة العالقة فى جيوب النسيان..

وإلى كل من خانتهم السعادة وتربص بهم الألم

تذكروا جيدا.. أنى مثلكم لست سعيد

السعادة السوداء

كان ذلك في صباح ممطر، وسط حقول ممتدة وزرعٌ أخضر وبيوتٌ متراصة كسلسلة حديدية مترابطة بحلَقات العادات ومتشابكة بمفاصل التقاليد .

أب لحيف يحمل سمار اللون، وكبرياء البخل ،و ظلم الريف ..

و أم لا تمتلك غير الدعاء في ليالي الرعد، وتقلبات السماء

و قد رتب القدر لـ"حسن" رقمًا في أسرة كبيرة مكونة من خمسة أفراد ..

فأحيانًا يكون همك الوحيد كيفية إطعام الحب ليعيش في وسط البخل بدلاً من أن يموت جوعًا .. فلا تستفيد منه بقبلة أو حتى عناق ..

فما أقبح القدر عندما يرمي بك في بيتٍ للحزن في أخر طريق قريتك ؛ ويسكن الحب بعيد عنك في منازل الكبرياء .. لا تمتلك سوى المرور عليه صباحًا وتعرج عليه مره في المساء ..

فما الذي جعل حسن يفكر في غباء الحب وهو في أحزان السعادة ؟!

إنها المرة الأولى التي كانت سماح في بيت صديقتها وأهدت له باقة من السعادة الحزينة في وسط فنجان من البكاء، كم كان يتمنى لو تضرع إليها حتى لا تعلن حبها له أمام صديقتها.

فأحيانًا الحب السري يحقق نجاحًا أكثر من ذاك الحب المُعلن.

ما كان حسن يمتلك سوى أن يتغابى بذكائه من أجل تكملة دراسته في وسط مجتمع يتربص دائمًا بمستقبله ..

فكان يبني جدران قلبه بمادة قاسية كالحجارة لا تعترف بالعواطف ولا الانهيار .. كما يحدث للشباب الذي يستجيب لأي هزة عاطفية لا تساوي رقمًا في مجال ترمومتر الحب ..

إلا سماح ضربت المفاهيم وحطمت المقاييس وهدمت حجارة القلب المتين ..

فهناك نساء يا سيدي لا يعترفن بعلم الصمود .. إنما تجعل قلبك قابلاً للذوبان والتفاعل حتى لو خسرت جميع إلكترونات الحب العاطفية التي تدور حول نواة قلبك القاسي ..

وهذا النوع من النساء هو كالقدر المخيف الذي يظل عالقًا في ذاكرتك مدى الحياة فمن قال أن الرجل سريع النسيان ويهدم الماضي بأسهل الطرق وأكثر الأوقات فهم لا يعلمون شيئًا عن قوانين الحب . فالرجل الذي يحب يعيش مريضًا بحبه حتى بعد الزواج من امرأة أخرى ..

و الزمن لا يتحرك في قلبه فيظل فاقدًا للإحساس بالوقت عندما تريد الذاكرة أن تفتح له دفاتر الماضي ..

أما حسن فلم يفكر في كل ذلك لأن لديه أكوام من المشاكل الأسرية التي تعوقه عن استخدام قلبه من الأساس، حتى جاءه خطابا من سماح طالبة الثانوية العامة ..و بكل لهفة لطالب يقاتل من أجل البقاء في الدراسة بعدما تربعت في عقل والده فكرة ربط الرزق بالتعليم .

و أنّ كل من حصل على شهادة من القاهرة يعود مرة أخرى للريف يجري في الحقول ويزرع الأرض التي هجرها من أجل الدراسة

فالبخل والجهل والعناد هو مثلث التخلف الذي كان يبتلع العقول في أطراف القرية الفقيرة

فكان جواب سماح كغطاء يشده حسن فوق ضلوعه في سقيع أسرته التي تصر على تركه للمدرسة الثانوية والتفرغ للزرع والأرض .

فمن الحب أحيانًا تُولد الإرادة ومن قالوا إنهم عاشوا خيبة الفراق يكون لديهم ضعفا في العزيمة ودائمًا يهرب منهم النجاح .

و عاد حسن يقرأ الجواب في يده للمرة العشرين : "حبيبي .. أنا لم أحب أحدا سواك . ولم أبك على أحد سواك .. لم أبك عليك يومًا ؛ بل بكيت أيام ..." "و كم كنت أصّبر نفسي بالمذاكرة ثم أعود فأبكي شوقًا إليك، إني أحبك .. أحبك .. أحبك ..."

فأصبحت هذه الأوراق التي كتبتها سماح وأفرغت عليها حبها الممتلئ بالمشاعر والوفاء هي مستند عاطفي يلجأ إليه حسن عند اليأس ليستمد قوته وصبره على معاناة تعليمه .

توغل الحب في قلبه حتى أحدث شرخًا كبيرًا في تلك الحجارة الموصدة حول القلب الصلب الذي ينهار ليتحول لدقات سريعة، عندما يرى رقمها على هاتفه ذات مساء .

هناك مكالمات تحتاج إلى استعداد نفسي وتأهيل عاطفي وتدريب وجداني للرد عليها، فعمر مكالمة قد لا يتعدى دقائق تترك فيك جرعات من الحماس والإصرار تكفي أحيانًا لتنبيه الأعصاب سنوات .

و لكن والده أصر على عدم تكملته للدراسة ورفع عنه المصروف وأصدر قراراته لباقي أعضاء الأسرة بتجميد التعامل معه لحين ترك الدراسة والتفرغ للعمل بالأرض.

و هو لا يعلم أن القضية عند حسن أصبحت قضية حب وتكافأ تعليمي مع سماح ؛ وليست قضية زرع وأرض وأموال .

فالحب أحيانًا يحرضنا على العصيان . والتحدي يحبب إلينا خسارة الجميع من أجل إرضاء العاطفة

وأستمر الصراع بين الأب الذي يمتلك مفاتيح القوة ويحشد حوله الأسرة كلها منهم المطيع ومنهم المحتاج إلى أبيه، وآخر وجدها

فرصة لإبراز نفسه ومناصرة أباه وبين حسن الذي لا يملك سوى جيوب مليئة بأحلام الحب ومشاريع العاطفة والرغبة الطفولية في التعليم والدراسة .

وقد أخذ قراره بأن يكون ناجح من أجل هذا الحب أولاً ؛ فالحب أحيانًا يحرض علينا النجاح

أزداد الأمر سوءا وأصبح لا مفر من تغيّر الوطن والسفر حتى لفترة من الزمن ؛ فترك البيت بعدما أعلن الجميع عليه المقاطعة كمنتج مسموم لدولة من الأعداء .

فقد تستيقظ من النوم لتتناول إفطار من أشواق الحب وتتبعه بفنجان من حماقة المقاطعة

طار حسن إلي ليبيا والكل يتساءل بلهفة واستغراب : كيف لطالب الثانوية العامة أن يسافر ويؤجل دراسته من أجل حفنة من الأموال ! و ربما حفنة من المشاعر والأب يمتلك أكوامًا من الأفدنة وصناديق الأموال.

ظل يعمل ليل ونهار بعدما ترك روحه ترفرف فوق نوافذ الحب والعاطفة تنهار من أعلى الجدار ؛ لبس ثياب التحدي على أن يرجع محملاً بما يكفيه من أموال ليعيش بعيدًا عن أسرته، ولكنه لن يتجرد يومًا من أشواقه لسماح، أو لم تتجرد الأشواق يومًا منه .

فالحب لا يحتاج إلى شنطة سفر لنقله ولا إلى جواز مختوم .. إنما هو يسبقنا محفوظ في الذاكرة ليفرد ظهره على كل سرير نستسلم عليه للنوم ..

مرت أشهر على غربته يعمل بكل نشاط طوال النهار، ثم يسلم نفسه للذاكرة طوال الليل فالحب المغترب أصعب لدى الرجال، يحمل معه ملامح الأحبة ،ولا يعترف بلغة المسافات .

أما سماح فقد ظلت في بلدتها تبلل وسادتها بالدموع كل صباح، فهناك علاقة حب بين الوسادة والدموع لدي النساء .

و المعروف في بلادنا العربية عامة، والريفية أن الأنثى لها سن معين للزواج، مثلها مثل كل الأشياء تنتهي صلاحيتها فقط عندما تكون قابلة للاشتهاء ..

فتظل الفتاة في حالة حب مع شخص يفترق عنها عندما يكفنوها لأول عريس .

سنة كاملة تنام سماح في خيال حسن وهو خارج حدود حنين بلاد العاهات والتقاليد

فلا تطلبوا الوفاء من أنثى تعيش في بيت ريفي تحكمه العادة وتكسو جدرانه خيبة التقاليد .. ولا تطلبوا الاتزان من رجل نزف قلبه يومًا على يد أنثي استجابت للضغوط العائلة

فهذه عادة بلادنا يا سيدي المرأة التي نحبها نقتلها دومًا على

أوراق الرواية ويأتي رجل آخر يكتب اسمها أسيرة في بطاقته الشخصية .

ثم تهبه طفلاً يثبت شرعية حقها في أن تتحمل العذاب، وتدفع عمرها ثمنًا تحت أقدام الرجولة .

كانت أخر مكالمة تلفونية بعدما رجع حسن من غربته قبل زواجها بأيام، يحمل معه حقائبه المحشوة بالأحلام فلم يتمرن على حماقة الرجال اللذين يستعينون بالجنس في الغربة حتى يشفوا من مطاردة عواطفهم بالحنين إلى أحباء الوطن .

فالحب ليس دواء يمكن أن نتركه ونحتمي بالبديل ؛ إنما هو مرض علاجه حقن في وريد اللقاء .

و أصبح يلزمه الكثير من لحظات الوجع عندما تتقابل عيناهما معًا إذا تغابى الحب مجاملاً وجمعهم في طريق.

إنها لحظات ساخرة ومؤلمة عندما نستخدم نظرات الخيبة لنعبر عن ضياع الحب الكبير .. فما أشدها مرارة عندما تتشابك عينيك في حبك المتشبث شرعيًا بسرير كان كل حلمك أن تتقاسم فيه مع الحب موعدًا.

لكنه أصبح اليوم يودعها في صمت، وهي بجوار رجل آخر تتبادل الأحاديث الهامسة .

و أمسى يلزمه من الذكاء قدرًا كبيرًا ومن الغباء قدرًا أكبر

حتى لا يمر على منزلها الذي يجلس في كبرياء على جانب الطريق الوحيد المؤدي لمنزله .

كيف يمر بلا حركة ،ولا كلمة، ولا جنون، ولا انفعال، أو نظرة لحو الماضي فالحب عندما يكون قريب من منزلك يمارس ضدك لعبة العناد، ويقطع عليك الطريق .

كانت تسكن بالطابق العلوي، فالحب الذي يأتي من أعلي يعطي إشارة بالكبرياء، حتى المنازل تكون في تواطئ عجيب ضدك .. تحرض عليك القدر أن يلقنك درسًا في فنون الغباء .

فكان حسن ينصرف لحو طريق آخر من وسط الزرع يعطي ظهره للذاكرة ويسير في ضوء الظلام ؛ وقد نسى أن للحب ذاكرة يحلو لها التربص في الظلام

إنه كالإدمان لا يمكن الشفاء منه إلا بعدما تفارق الروح الجسد.

فالأنثى لدينا تستجيب للضغوط العائلية لتفتح بذلك فخ الأزمات العاطفية وتصبح رقمًا في طابور العواطف المنهارة ؛ تعطي جسدها لرجل وروحها معلقة بآخر ؛ أو الآخر هو المعلق بها .

و بعد الغياب الطويل .. جاء صوتها محملاً بالدموع ،، في مساء يومٍ كان مشوش الحنين "كل شيء قسمة ونصيب .. لن أتحمل الضغوط .. ولكني مازلت أحبك ..." وانقطع الخط وسط الصوت المخنوق بالدموع .

كدة عيب يا جدعان

كده عيب يا جدعان

علي الطلاق أفتح كرشك ..

طب لو أنت راجل أعملها وأنا أقطعّك بالسطور ..

أردم الحفرة دي . أحسن ابلغ عنك والراجل الكذاب الساحر ده أياك اشوفه هنا تاني ..

آه أنا مش هردمها ؛ أنت زعلان علشان حكاية ابنك.. أنا بقي هكمل للآخر وهطلع الآثار إللي تحت البيت

خلاص بقي أنت ناوي علي موتك فيها ..

يا خلق اعقلوا .. أنتم أهل .. وكده عيب !

كان يومًا مشئومًا يوم خناقة "على عمران" وأخيه .. كلام كثير أتقال، بس محدش عرف أيه الحكاية بالضبط .. وقررت أن ألبس ثيابي وأذهب أتمشي بعيدًا عن هذه الدوشة.

في آخر البلد عند الساقية المهجورة والزرع الأخضر، وهناك أرتفع صوت الباعة الجائلين وصراخ الأطفال وفناجين الشاي، فعدت إلى البيت لأنام وأستريح

و دفعني فضولي أن أنظر من فتحات بـاب "علـى عمـران" لأعرف إيه حكاية الكنز ده .. ظللت مشـدودًا ونفسـي مخطوفـة، أشعل السجارة تلو الاخري وأنا أرى اشياء غريبـة مـن فتحـات الباب ..

حفرة عميقـة حـوالي عشـرين مـترًا تحـت الارض ملفوفـة بقماش "دبالان" أبيض مثل قماش الكفن

"على عمران" وأفراد عائلته مجتمعون فوق الحفرة في صمت رهيب وهذه تعاليم الشيخ الذي يتولي مسئولية استخراج الآثار من الحفرة

خمسة عمال مربطون بحبل من وسطهم، ينزلـون عـبر سـلالم خشبية إلى أسفل الحفرة ؛ لتكملة الحفر

كان الخواجة الشيخ يتحدث في التليفون بلهجة غريبة .. دخان البخور المشتعل يملأ المكان .. امرأة جميلة ترتدي فستانًا أحمر يلمع علي جسدها الملفوف، ويفوح من شعرها رائحة عطر جميلة تفتت المفاصل ..

كلمات غريبة يتمتم بها الخواجة ؛ الفجر يقترب وأنا مازلت ألهث وراء فتحات الباب لأدقق فيما أرى،

كان سكونًا ثقيلاً كريهًا

كدت أملّ من الموقف ولكني شعرت فجأة كأني تلقيت كرباجًا ساخنًا شدَّ أعصابي .. المرأة تمشط شعرها الطويل !

والكل يستعد لمغادرة المكان إلا سيدهم الشيخ الذي أخفى وجهه وسط دخان البخور .

فأشعلت سجارتي وفرحت جدًا لأني شعرت بأن قميصها الأحمر بدأ يتساقط ؛ وتحول الشيخ الأسد إلى حمل وديع من أول قبلة

ذهبت إلى البيت وعلي سريري بدأت استرخي وأغمض عيني وأنا أتذكر الحفرة الملعونة، والمرأة العاهرة التي تبيع جسدها للشيخ الكذاب من أجل قطعة من الآثار الوهمية ..

و ظللت في حركة دائمة طوال الليل وفي الصباح حكيت لصديقي كل ما رأيته بعيني فكنت أحكي وهو يقول : أيوه .. مظبوط .. صح

فقلت : ايه يا جدع إللي صح ؟!!

صمت لحظة وقال : الفاتحة على روح "علي" الطفل القتيل الذي هوت قدمه فسقط في الحفرة قتيلاً..

لعنت القرية ولعنت الآثار، عدت للمدينة حيث الازدحام والأنوار .

* * *

لحظة يأس

أصابع مرسومة بالدماء، كف أنثى ينظر من أعلى السلم. وحدها المعاناة تعرف بصمات الكف المنتحر. فهل يمكن للموت أن يبقى مقيم معنا فارش لون جلده المخيف على حوائط سلم معد مسبقا للحرمان؟

ماتت المرأة فى مساء يوم الحزن الأول من شهر الخلافات الزوجية فى مطلع شتاء بارد الأعصاب والطقس معًا. تاركة ورائها أربعة أولاد ضلت الفرحة طريقها إلى قلوبهم. كل ما حدث مساء يوم الخميس كان عالقا فى ذاكرة شقة صغيرة بقرية تقف على مدخل الألم. خرج الرجل يندب حظه الأحمق ويلعن قلبه الأعمى الذى أحب منال. أيمكن لأستاذ مادة الرياضيات الذى يداعب الجذر التربيعى ويحتضن غموض اللوغارتمات أن يفشل فى مداعبة زوجة أهداها له القدر فى مواسم الجمال؟

استعرض أكتاف فكره المغرور فى منتصف ليلة محرضة هى الأخرى على ارتكاب الحماقات، وراح يجرد قائمة كئيبة لمصروفات المنزل خلال أسبوع. اكتشف العجز داخل حسابات زوجة تجملت

بملامح وجهها البرىء. خمسون جنيه لا تستحق حماقة ملامحه الساخرة وكلماته اللاذعة، فأحيانا تأخذ الكلمات ملامح طلقات تصيب الرأس دوما وتفتح نزيف القلوب. ارتفع صوت الغضب من رجل لم يكن فى حسابات امرأة، عاشت تضحى من أجله منذ ليلة دخولها منزل العذاب. كانت تحلم بسير فارغ من كل شىء إلا من دفء الحب وكرامة الأحضان. وجدت نفسها أسيرة لسرير يحمل التكبر والتفاخر بعلمه ويقتل الكرامة على أطراف كلمات يرددها دومًا "أنتي لو كنتى كملتى تعليمك كنتى تعرفى تحسبى كويس... لكن للأسف حظى بقى معاكى بعد عشرين سنة تعليم" فالصمت وحده يتحدث بفصاحة أحيانا للرد على وقاحة الكلمات.

وعادت منال تكتم أنفاس الذاكرة التى تصر دوما على الحضور الغائب لكلمات والدتها واستدعاء اللوم المرير "أنتى اللى اخترتيه وسبتى كل اللى اتقدملك.. ابن عمك مهندس قد الدنيا واتبطرتى عليه.. وزعلتى العمدة نصر الله لما رفضتى عزام ابنه وفى الآخر بعتى دهبك وأرضك وعملتى ليه بيت وجبتى ليه عيال.. ولسه بيعايرك بتعليمك وبيتكبر عليكى" جمعت دموعها واستقوت بضعف ابنتها الصغيرة بعد ما تركت مكانها فارغ بسرير أحمق يحمل لقب أستاذ.

الجمعة كان موعد مع حزن جديد، فتحت الزوجة كل حقائب العذاب ونوافذ الألم المغلقة منذ سنوات وفرشت دموعها أسفل كلمات متقطعة، تصف بحروفها خدعة القدر عندما يصر على هزيمة النفس فقط وقتها يستحيل البقاء. لتعلن رحيلها من بيت الزوجية إلى بيت أخيها الأكبر. فعشرة سنوات كافية لتحمل إساءة زوج لم يهتم سوى بتغذية كبرياءه، لم يأخذ رأى الجمال يوما فى كيفية مداعبة الأنثى. أهدى إليها كفن لطموحات كانت تقف على نوافذ الانتحار. ترى لو أنقذها من الموت وأعاد للطموحات طريق للأمل وارشادات للوصول؟ لكنهم رجال يعلموا فنون ارتكاب جرائم الإبادة النفسية واجهاض الحب من باطن القلوب. قالت بعد ما قدمت الغداء "عايزه أروح أشوف أخويا وأقعد معاه كام يوم.. أنا مخنوقة شوية.. كلمته وهيعدى علىّ بعد العصر" كانت الفتاة الصغيرة تعتذر لفستانها الأبيض المعد مسبقا للزيارات وترسم فى أذهانها ملامح منزل خالها البعيد. ونظراتها ما زالت متعلقة بأذيال كلمات قالتها الأم فى الصباح. "خليكى مع إخواتك يا عزة.. مش هينفع أخلك معايا.. أنا ممكن أقعد مع خالك كتير.. أنتى شاطرة وهتخدمى إخواتك أكتر من البنت الكبيرة الخايبة" وما كانت الأم إلا تلك الوجع الذى يتخلى عن صغيرتها فى سن اليأس المبكر. تركت لها أمانة منتحلة ثياب

مسئولية البيت بعد الرحيل المؤجل لها وعاد الأب يقول "إنتى مستنية مين؟ وحتى لو أخوكى هنا مش هتمشى معاه وخدى بالك ممنوع تطلعى من البيت ده إلا بإذنى.. أنا اللى عارف كل حاجة أنا اللى فاهم أنا الأستاذ" تلقت منال كلماته بصمت ودخلت غرفتها تبكى بعد ما خلعت قوتها المنهارة وأسلمت ظهرها العالى من الأمان إلى حائط باردة. تداعب دموعها أطراف وسادة جمعت رأسين فى ضيافة ذل السرير طوال أعوام. لم تخطئ هذه المرة فى حساب أرقام الحزن وعادت الابنة تفتح جيوب الذاكرة لتتحسس فاجعة قديمة موضوعة فى عقلها الصغير. لم تفهم عيون الشيخ الذى وضع كلمات مبهمة فوق أوراق كئيبة تستحم بها الأم عدة مرات. فقط كانت تحفظ ملامح أمها فى تلك الليلة عن ظهر خوف. تكررت الليالى وتنوعت الكواث والشيخ وحده لا يتغير. كان يلزمها عمرا آخر حتى تعرف أسرار الجان الذى سكن عيون والدتها فى ليلة باتت وحيدة إلا من ظلام غرفة ذات نافذة صغيرة على مدخل منزل الخوف. دخلت الفتاة غرفة والدتها تاركة ذاكرة الخوف خارج حدود الباب. لتجده متربس بها فى عيون والدتها التى تشبه الفزع فى مواسم الانتقام، مدت يدها تتحسس الأمان على سرير يحمل دفء الأم المكومة وسط كراكيب الحزن فقبضت الأم على كفها واستدارت لتهزمها بعيون مرعبة تأمرها بالخروج.

دقائق معدودة كانت فاصلة بين أقدام الصغيرة متجهة نحو غرفة أخرى حيث يجلس الأب فوق خسائره المنتظرة. وبين أقدام الأم متجهة نحو المطبخ فى صمت يشبه ضعف الانتقام. أغلقت الباب من الداخل حتى لا يعطى فرصة للإنقاذ. وأشعلت نار العجز فى جسدها النحيف راح الدخان يبشر الأب بخيبة أعماله ونتائج جبروته. وظل يستجمع قوته لكسر الباب. وصرخ الأولاد حول بطانية استعان بها الجيران لكتم أنفاس النار. حملها الجميع فوق الأكتاف، مشوهة الملامح، تغمرها الدماء. وقفت عزة تبكى مندهشة وعيناها معلقة بكف الأم يطبع بصمات دموية فوق أكتاف حائط سلم وداعها الأخير. ليقفز خبر وفاتها فى مربع صغير، بجريدة يعمل بها زميل للزوج منذ سنوات الغرور. وما زالت ملامح الكف واقفة بإصرار فوق ذاكرة سلم الرجل المغرور.

ذات السواد

كان صباح الحب الأول في حياتي .. كنا في بستان الأمل بعدما حصلنا علي تصريح حب مختوم بشعار الخوف ورفض التقاليد ورشوة الواقع ؛ فالحب الذي يبدأ مع فارق العمر بين المحبين يقف دائمًا على أبواب الخوف وتهدده نظرات الآخرين .. فهل قلوبنا على حق في الإحساس .. أم فارق العمر يقف دائمًا حارسًا علي القلوب .!

إنه الحنان الذي يجردك من ملابس الحزن ويمنحك قوة الصمود في وجه الحياة .. فهناك نساء تجبرك علي تناول فنجان السعادة كل صباح .

كان إحساسي بها كزرع ينبت في أرض ممنوعة وحبي لها يظل محل نزاع .. فالحب الذي يتربي على المحظورات هو لغتي فى الحياة..

جلست أمامي كطالبة علم ولكنها سيدة في بداية العقد الخامس من عمرها .. وكنت أود أن أسألها منذ اللقاء الأول، كيف كان فمها يصغرها بعشرات السنين ! ..

تغريني دائمًا شفة صغيرة مقلوبة ذات وجهين تحتاج لعشرات القبل حتي تستقر وتحمي تلك الأسنان الصغيرة المتراصة كحبات العقد المتربصة دائمًا بيد الحبيب .. وها أنا ذا هنا حديث العهد بالقاهرة غير مستقر ولا دائم الإقامة .. فلما لا أكون ساكنًا ومقيمًا

على تلك الشفاة ..فطوال حياتي أبحث عن الاستقرار والأمان .. إلا اليوم أحببت حية الخوف فوق أسوار أربعة حروف هي اسمك الجميل

فالأذكياء وحدهم يحبون نساء من عمرهم .. أما أنا فقد عشقت غباء الحب لامرأة فوق الأربعين

حيث كنا في مكتب صغير متقابلين .. فنظرت إلى أصابعها المتراصة الملفوفة بالحنين .. وحرّكت عينيها على نظراتي الصامتة .. وبدون أن تتكلم صرحت لي بمتابعة جمالها العظيم . كيف أكون أسيرًا لشفة امرأة وأعلم أن أصابعها تتشبث بسرير شرعي لرجل آخر منذ سنين !؟

.. فالجميلات وحدهن يقعن أسرى لسرير الحزن، وجفاء الرغبة مع رجل يرقص فوق مشاعرها وهي تنتسب إليه بحكم البنات والبنين .

لبسها الإسود دائمًا كان يطل عليَّ بضوء كشمس النهار، فتلك الأناقة الأنثوية التي تثبت للعمر أنها أقدر منه على استمرار الجمال .. والثدي النافر الذي يسطع ضوؤه من أسفل لبسها الأسود الجذاب . ربما تفضل هذا اللون لأنه يحمي ما بداخله من أشياء ..

كانت تتحرك ببطء وتترك بيننا مسافة محرم علي الاقتراب منها.. فمسافات الحب لا تعترف بلغة القياس .. ما الذي جعل هذه المرأة تظل عاملاً للإغراء علي مدى الاجيال ؟! . وهل من

حقي أن أشعل النار في تاريخها القديم لأكون أنا الوحيد في صفحات حياتها ..؟ !

كانت عيني تفتش حقائبها كلما حضرت بأكياس ملونة وحقائب محشوة بالأكلات البيتية التي كثيرًا ما صنعتها لي

حتى الحقائب كانت تخفي بداخلها أدلة الحب وثبوت الإقناع .. فالمرأة التي تعد طعامًا شهيًا لرجل وتحمله مسافات بعيدة لديها خزينة مشاعر .. والكثير من رصاصات الإعجاب

فقد دخلت قلبي من أبواب الحب والاهتمام والمسئولية معًا .. وكم حلمت بها مرات إني أفتح أبواب غرفتها . أراها تقبلني باشتياق وهي تلف يديها حول رقبتي محركة أصابعها .. فيتساقط اللون الأسود خوفًا من هيبة اللقاء .. وهي تحرك أصابعها فوق صدري بشهوة التجسس علي نبضات قلبي .. وتتحرك يدي حول الخصر المنحدر إلي الوراء .. فترمي بباقي قطع الثياب ؛ لينطلق بركاني الداخلي نحو شفة لم أملكها إلا في أحلامي ..

فهناك جرائم لم نرتكبها ونقضي حياتنا في تنفيذ عقوبتها ..

كم كنت أتمني أن يكون جملها مني ولو كان وهمًا وخيالاً .. حتي الوهم يحتاج أحيانًا إلى حبوب منع الحمل والإجهاض !!

كنت أصرخ معها أقتربي مني .. اغرسي أظافرك في جسدي حتي تسيل الدماء .. فالعنف أحيانًا قمة النشوة وأحيانًا فاجعة

اللقاء .. انسي يومًا إنكِ تزوجتي، فالزواج هو رماد لنار كانت مشتعلة ثم نزلت عليها الأمطار ..

وأنا بإمكاني أن أشعل فيك نارًا تحمل ضمانات الخلود فحبك لي يمنحني الحياة وروحي داخلك تمنحك البقاء .. تعلمت فلسفة التاريخ فوق مرتفعات جسدك العالية، ومررت بالموت في منعطفات سريرك الذي كان شاهدًا علي تاريخ زواجك في زمن الخيبات الزوجية .. ثم ماذا تستفيد امرأة من حياتها عندما تبيع نفسها لزوج يحتكرها ويمتلكها وليس لديه قدرة دفع ثمن مشاعرها؟!

فيتنكر لهذه المشاعر ويقتل الإحساس بمساعدة عجلة الزمن السريعة ودوامة الأولاد .. وأحيانًا يصبح عبئًا عليها .. يتفنن في أنواع الكسل .. ويعلق كل متاعب الأسرة علي أكتافها العريضة حتى تنهار .. وفي وقت فراغه يتفنن في صنع أطباق شهية من النكد . ويظل فنجان الحياة بجوارها مليئًا بالغضب .

إنه القدر المخيف الذي لا يصيبك إلا في الخطأ ؛ أما في النفع والخير دائما تجده يمزح معك ولا يطعنك .. فالحب لا ينظر إلى خانة الحالة الاجتماعية في البطاقة .. لأنه لم يقف يومًا في طابور السجلات المدنية

و المرأة وحدها قادرة على تكملة الحياة بعلة الأولاد على سرير الزواج المفروش مقدمًا للسعادة .. وسرعان ما تستسلم لدوامة الحياة

.. فتجد نفسها مع زوج هي فقط ملتزمة بمواعيد خروجه وغسيل ملابسه وإعداد أكلاته المفضلة واعتباره أحيانًا أخًا للأولاد.

كيف يريد عقلي أن أضبط مشاعري معها والقلب إليها مليء بكل هذه المشاعر

وعندما سألتني :

أتعرف فارق العمر بيننا ؟

قلت لها : لا .. ولكني أعرف قيمة ابتسامتك الدافئة في ليالي الشتاء ..

من المهم جدًا أن تعرف امرأة تصبح مهندسة بارعة ترمم خرابك الداخلي .. فالجميع يشعر بأنني أحترم وأقدر هذه المرأة دون أن يعلموا أنها مشروع حبي المستحيل ..

حتى يوم أن أهدتني تى شرت في عيد ميلادي ؛ فإن امرأة تعرف قياس رجل لم تلمس يومًا جسده إنما هي لم تقس بلغة الملابس . بل أصبح إحساسها ثوبا يعرفني ..

و أصبحت أحلامي بها متتالية فقد جاءتني يومًا تقود سيارتها علي غير العادة في وسط الزحام .

دخلنا معًا بضيافة بنتيها الاثنين ؛ وكان الصباح ممطر كما تأتيني دائمًا في أحلامي، كأن الجو يغار مني في صحبتها ويشوش علي سعادتي بها .. فأحيانًا تجد من يسلب سعادتك حتى في الأحلام .

وكان (عصير الحمام)هو المفضل لدي في كل حلم أقابلها فيه على الرغم من أني لم أمتلك شجاعة التجربة لأشرب هذا المشروب في عالم الواقع .

قالت عندما أخبرتها إني سأكتب قصة قصيرة عنها : صعب أتبادل معك الحب وأنا لدي بيت وأولاد . ولكنها فكرة تغريني أن تقدم لي مشاعرك في كتاب

فنحن نكتب أحيانًا لكي نمارس الحب .. وأحيانا أخري لكي يتغذي أحبابنا بتعذيبنا في نهاية كل قصة قد بدأناها من ذاكرة دومًا نتركها مع الخراب كل مساء

إنه صراع نفسي لامرأة نشأت في بيوت العادات والتقاليد .. وسرقت الوسامة من ملامح أبيها الذي يشبه الأوربيين في مواسم الجمال ..

كانت كلما حضرت إليَّ محملة بالأسئلة لنتناقش في أمور الحياة .. ترجع بعدما تتركني متلبسًا بسرقة صوتها مسجلاً في أذني ومعلقًا بذاكرة فارغة لرجل عاش حياة الحرمان .. وهي راسخة لا تتحرك كالجبال ..ربما اكتسبت الثبات بحكم عقلها الكبير ونشأتها الريفية المختبئة وسط الوفاء الموروث ..

لا أعرف كيف أرد عليها عندما أخبرتني أنها قابلتني في حلمها ليلة الثلاثاء الماضي .. وحكت كيف كنت أساعدها في كتابة بعض السطور علي أوراق قد أعددتها مسبقًا لتكون شاهد إثبات حبي لها..

وكأن النوم وحده قادرًا علي أن يهيئك للحب

..قلت لها فجأة : ما تبقي في جيوبي سوى حظ أحمق جعلني أسلم قلبي لامرأة على شاكلة قبيلة من النساء

في بداية حياتي كنت قد أتخذت قرار بعدم مداعبة النساء . فأحيانًا تبتعد بنفسك عن رياح الخطر العالية . ثم تغرق سفينتك في بحر يقسم أنه أبتلعك لأنه يحبك

فكانت تبادلني الأحلام وتتقاسم معي فكري وقلبي حتى في المنام . ولكنها تعيش صراعًا نفسيًا مع النسيان عندما ترى زوجها والأولاد

لكنني في حاجة إلي تجربة أعضائي بعدما عشت في الريف لا أطمئن على رجولتي إلا مع نفسي في أضواء الحمام ..

ورحت أتفنن في صنع عقبات نفسية بينها وبين زوجها الذي أستسلم لجليد العلاقة ولم يقرأ يومًا في علم الإحساس ..

فأنا وهو نشترك في حبنا لها .. وكلما حاورتها مؤكدًا لها أن حياتها هي الموت المؤجل لمشاعرها .. وجدتها في سخرية نسائية لنظرية الحية .. ورحت أسألها بحرارة باردة عن جمالها الذي تنفقه مجانًا في سفرها للبلد ورجوعها تمر علي مصالح حكومية متعددة ثم تعود لبيت ترمي فيه ذاكرة فارغة من قصة حب أو حتى قصة فراق .. فكانت تجيد الرد المهذب الذي يبعد عنها كل الشبهات .. وكأنها تقول :" هين قلبك ولا تهين سمعتك " .. إنه الجمال الغبي أن تبقي العواطف معلقة علي حائط الممكن ويلتفّ حولها المستحيل ..

لم أعد أدري ماذا أفعل أنا الرجل الذي لم أتزوج من قبل ودائمًا قابل للاشتعال عندما ألامس السرير .. ولكني أتمنى أن أترك رجولتي في مقابر هذه المرأة إلي مثواها الأخير

فدومًا كنت أفكر في نهاية المشهد المثير .. هل سأقرأ بعد سنوات خبر نعي زوجها يطالعني في صفحة لمجلة مركونة علي الرصيف ؟

فالموت أحيانًا فيه إنقاذ للآخرين .. هل سأترك قصتي معها مفتوحة ؟ لأن الزمن وحده سيقابلني ضاحكًا وهو يحمل معه مخرجًا لعواطفي المشحونة منذ سنين ؟! .. أم أن الموت أحيانًا يحرض العواطف علي كره المحبين ..

لا أريد أن أكون معها وهي تدمع علي فراق زوجها بعد سنين .. فالدموع خلقت فقط لكي تجعلنا نضعف وننزلق نحو الهاوية ..

إنها حماقة التوقعات لحظة خراب البحث عن مخبأ لمشاعر متجولة .....

* * *

الآنسة (ن)

من قالوا بأن النساء تجارب وخبرات فهم لا يعرفون شيئًا عن فنون الحب وأساليب الإقناع . فعلى الرغم من لقاء خالد لأول مرة بالآنسة (ن) التي تصغره علمًا وثقافة وتكبره طولًا وجمال فإنه أحيانًا يأتي إليك : الحب رافعًا رأسه لأعلي وكأنه يفخر بعذابك لو كنت متوسط الطول أو تحمل شبهة أنك قصير

كان يظن أن قصره هو الذي يفسد عليه أي علاقة تلعب بطولتها سيدة طويلة القامة . فكان يصبّر نفسه باعتقاده أن الطول هرب منه وترك له العقل بديلاً

حتى صباح يوم الجمعة في وسط شهور الشتاء الهاطلة علي جدران القلوب .. فكانت النساء الطويلة لا تملك إلا التعاطف معه عندما ينظر إليهن برغبة الشروع في الحب ..

وكأنه يتعدي علي هيبة الحب الطويل إلا الآنسة (ن) التي جلست في اللقاء الأول تتأمله وهو يقرأ قصته الأخيرة في كتابه الأول .. ربما ..كانت تبدو سعيدة وهي تسمع كلمات رجل لا يمر علي معرفتها به سوى دقائق .. فأحيانًا الجرأة من الرجال تختصر المسافات بين النساء .. والرجل الجريء يرشو التاريخ لكي يذكره

بين أحضان الجميلات .. فكان يتوقع أنه يهدي النساء حوله قصة جميلة أهدته القصة امرأة أجمل ..

والمرأة التي تعجب برجل من أول لقاء يكون لديها حاسة قوية في شم الرجولة ومعرفة الأوفياء.. وأنطلق خالد بصوته المرتفع وسعادة المبدعين يكمل قراءة قصته .

فأحيانًا يربكك الجمال عندما يفتح عينيه ليتناول فنجان الإعجاب في حضرة فتاة طويلة ذلك الطول الفرنسي الذي تفتقر إليه النساء المصريات .. وشفايف تبتلعك لمجرد أنك لا تحمل شهادة خبرة ضد فاجعة اللقاء .. ونفور الثلي الثائر الذي لا يخضع لقواعد الأنوثة ولا يعترف بانتخابات باقي الأعضاء .. والبطن المشدوشة ليس بها ثناة واحدة كأنها طريق ممتدة في حالة حظر التجوال .. فإذا كان وراء كل كاتب عظيم امرأة تلهمه الكتابة .. فإنه وراء كل امرأة عظيمة رجل ينظر إلى ثديها ..

أكمل خالد قراءة قصته بعدما أصبح لا يعنيه رأي النساء الأربعة اللاتي يسمعن قصته إلا الآنسة (ن) الذي يشعر بأن نهايته الأدبية ستكون فوق سطور قصة هي مشروعها المقبل

فأحيانًا نكتب لكي ندفن رغباتنا التي لم نحققها في الواقع .. وأحيانًا أخرى نكتب لكي نفترض حبًا كم تمنينا لو عشناه

أما خالد فهو يستعد بعد اليوم لكتابة نهايته مع فتاة تقيم حفل وتتمايل رقصًا فوق جثث عشاقها ..

و ما إن انتهي خالد من آخر سطور قصته حتي أعترضت (رانيا) على أسلوب التفاصيل النسائية الجريئة في القصة .. فوحدهم الآباء الذين لا يمنحون بناتهم حرية الفكر وسعة الخيال لا يحصدون منهم إلا ثمار الغباء وسلبية الإنفعال ..

و أعرض خالد عن الدخول في نقاش مع فتاة مازالت تمارس الخيبة العقلية وتتخذ نصائح جدها حاجزًا في التعامل مع الآخرين . فأحيانًا من يوهمونا بالعفة والأدب تكون أفخاذهن متقاربة للفتح في انتظار من يفتحها ..

و عادت الآنسة الطويلة تحرك أردافها ببطء تتراضى داخل بنطلون يعاملها بمودة العشاق .. فهناك ملابس عندما ترتديها المرأة تشعر بأنها تقيم علاقة حب معها ..

ترى لو لم يرفع خالد عينه وهو يقرأ كان سيتعرف عليها من لهيب الإحساس ..؟

و لما لا ! وهي التي كانت عائلة كاملة تنبض بالحنان .. عاشت حياتها تحتضن والدها بعدما غدر القدر بسرقة أمها ظنًا منه أنها ستعيش في انكسار . ولكنها أرادت أن تعلم القدر أن مفعول كوارثه لم تؤثر في بعض النساء ..

فكانت لوالدها كل شيئٍ في الحياة .. وهو الآخر تعلم المكر علي الأقدار فرفض الزواج مرة أخرى وعاش حياته يحترف اعتماد مشاعره بأختام تحمل شعار الانتماء فقط لابنته .

لم يكن خالد يعرف أن الإعجاب له أنواع .. فكثيرًا ما أعجبت النساء بفلسفته في سرد الأحداث .. ولكنه اليوم أمام إعجاب من نوع آخر . إنه إعجاب القلوب ..

لم يمر سوى أسبوع واحد عرف فيه كل شيء عن آنسة الحب الطويل .. وجد نفسه متورطًا في جريمة حب كان ذنبه الجميل فيها قرأة قصة لنساء مجتمعات ..

و خاف خالد أن يحرك والدها ضده دعوى ويتهمه بسرقة حبه الوحيد فيصعب علي الأب أن تسلب منه ما تبقي من حب لديه وتطالبه بمد يديه ليبارك هذا الخراب الجميل .

..وكلما عاد خالد إلى شقته بجوار الجامعة فرش ذكرياته فوق سرير العزوبية

فهناك علاقة حميمة بين العاطفة والسرير .. فقد تتخيل الوسادة امرأة نائمة علي ظهرها .. فتغلق الباب وتحكم الإغلاق أستعدادًا لليلة حب في حضرة صوت من تحبها وعندما تحرك يديك علي تلك الوسادة وأنت تختلس صوت حبيبتك فتجبر أعضاءك على الاستعداد لممارسة فن الزواج ..

فكان خالد كل ليلة يجهز بجواره مستلزمات السهرة ويحيط نفسه بصوتها الدافئ الذي يأتي من جسدها الطويل .. فما أصعب من أن تندس داخل سرير يحمل رائحة امرأة تجعلك دائم الاشتباك مع جسدك والانزلاق نحو البانيو في حمام كبير ..

وجد خالد فرحته عندما حصل علي موعد عاطفي يغسل فيه ماضيه الأنثوي الرديء .

فكل امرأة نعرفها تأتي لتزيل بقايا نساء قد استعنا بهم في زمن الإفلاس النسائي القديم .

إنه علي موعد مع الآنسة (ن)

إنها الكارثة الطويلة والخسارة الرقيقة . عندما يلتقي بها ليشتبك مع فمها بلهيب القبلات

غدًا ستتغير محل إقامته ليصبح ساكنًا بين ثدييها اللذين يثوراه . فيصنع موسيقي بلون الزلزال .

ستأتي إليه بالعباءة السوداء فالطول الأنثوي يحتاج إلى ملابس تفهم فن الرسم ولهيب الإغراء

فيا لغباء رجل ينتظر امرأة تحمل بين ضلوعها التمرد والكبرياء

فهي دائمًا تخلف مواعدها وتسخر من الانتظار، فهناك نساء يلزمك أن تقبِّل يد القدر حتى يجبرها على حضور موعد هي قد حددت مكانه مسبقًا .

و هذه هي الصدفة عندما تأتيك منتحلة شخصية الحب الطويل، كم تخيل خالد وهي قادمة إليه بخطوات عاطفية طويلة تشبه جسدها في سموه وهيبتة .. تلتف في تلك العباءة السوداء وتخفي يديها في بطن قفاز أسود يجبرك علي الغيرة منه عندما تحرك أصابعها فيتحرش بها القفاز .

فنحن أحيانًا نغار من الأشخاص وننسى أن هناك خيانة تأتي من الأشياء .

و علي الرغم من أنها كانت تتسلى بقدرتها على فقدان شهيته عاطفيًا عندما تقدم اعتذارات لعدم حضورها إليه .. فكان هو كالقاضي عندما لا يطمئن لصحة الأدلة لأنه يعلم أن الجاني يتصنع الأعذار.

و علي أي حال ظل خالد سعيدًا بفوضي عذاب الانتظار .. طلبت منه يومًا أن يصف لها شقته بالتفصيل، وكأنها تريد أن تجسد وجودها السري في خيال الحائط وتقلبها بمنتصف السرير.

لا يدري من أين خطرت له فكرة أن يستعين بصديقتها تلك السيدة في عمر الخمسين .. فهي دائمًا تحدثها طويلاً وتقنعها بضحكة بريئة وكلمات شبابية كأنها فتاة في العشرين .

فهناك نساء مهما طاردها الزمن تظل هاربة منه متمتعة بفنجان الحرية، وبياض الذاكرة من خيبات السنين . ولكنه أكتفي بأن

ينتظر اللقاء دون وساطة ولا حتي هدية للقدر على سبيل الخدمة وتقديم أوراق لقائه مع فتاة العذاب الجميل

كثيرًا ما أشتعلت نار الغيرة بينهما، فكانت تهاتفه لتحكي له تاريخ قلبها الذي سرقه بعض الغزاة والمحتلين .. فالحب الناجح يحتاج لهدية من الغيرة مكلفة بدموع الماضي حتي يفشل .

لأن النساء الجميلات يحرضن الرجال على قتل الملل بإقامة مشروع حب يشبع رغباتهم بتمويل من عطر الإغراء بالمنصب أو بالثراء ..

فالحب المبني فوق أكتاف الإغراء يكون مطلي بزيوت الفشل

و المرأة التي تشعر بالوحدة يسهل اختراقها بلغة الأخوة والصداقة، وسرعان ما تتحول الصداقة إلى مشروع حب موارب، ثم حب وإمتلاك وهجران وفراق وبذلك تضيف الأنثي إلى ماضيها ورقة من الاوراق

فكل امرأة جميلة نقابلها لا نطلب منها معرفة ماضيها .. لأن الماضي دائمًا يهدد الجمال

كان خالد يستعد للسفر إليها من القاهرة إلى الشرقية فهناك حب لا يكلف نفسه سفر الطريق وإنما فقط يعطيك العنوان على خريطة لوجه ذى ملامح خليجية جذابة وجسد طويل

و في موعد بلغة العشاق . تقابل خالد معها .. دخلت في خياشيمه وأقتحمت عطره .. كان يشعر بأحضانها تشبه حنان الأم .. وجغرفيا جسدها تجعلك تستمتع بالسقوط بين الجبال .. فتحسس صوتها الذي يشبه الصمت الجميل .. وراح يجلس في ضيافة الشفايف لوقت طويل .. فهناك شفة تهزمك وتحبب لديك شجاعة الضعف الطويل

ففي عالم الحب تلتزم أعضاء الجسد بالدور لتتلقي جرعة الحياة من جديد .. ويعترف الثدي بجرمه يوم أن عاش وحيدا

و هي تحرك يدها فوق لحظات العمر في أول مشهد مع رجل يستحق دفء صدرها ..

إنها في أحضانه .. لقد جاءت رغم عناد القدر .. رغم فارق الطول .. رغم سحاب المطر . رغم تحذير الأرصاد الجوية .

* * *

أحلام عارية

يجعل لك في كل خطوة سلامة، وكل كويس يا بني .. وأتغطّا كويس ..

سلامات .. مع السلامة .. خد بالك علي نفسك .. هتوحشني ابقي كُل القُرص إللي أنا حطالك قلبي جواها يا بني .. وأكل زمايلك ..

و كادت يدي تنخلع من السلامات، ركبت عربة بالأجرة أخذتني إلى محطة المكروباص التي تقف في الهواء وسط الحقول الجرداء .. وحل الظلام الحالك ولا شيء حولي سوى أنفاسي الثقيلة وأنا أنفخ الدخان ..

رميت بنفسي داخل العربة وبدأت أحارب النعاس وأعد الحقول التي تجري مع عجلات المكروباص اليائسة وعلي أضواء المصباح المرتعشة تذكرت الريف والحقل والفلاحين ومنظر يدي وهي تقبض علي لقمة خبز يابسة وأنا أجمع عيدان القطن وعمي فتحي الطويل الأسمر وشعره المجعد وجسمه النحيل والعصا التي كان يضرب بها الاطفال لحد الإغماء مقابل خمسة جنيه طوال النهار.

و الأشباح التي تهاجم القرية .. والحرائق المجهولة في القصب، ولم أفق إلا علي صوت السائق "إحنا وصلنا مصر يا أفندي"....

السابعة صباحًا كنت علي موعد مع السمسار الذي كان يتلذذ بتعذيبي قبل أن يسلمني مفتاح غرفة للإيجار بجوار الجامعة ..

ورميت نفسي على سرير قديم وجسمي مهدود من كركبة المواصلات.. كانت يداي ترتعشان وعيني زائغتين وصوت الحشرات والصراصير وكأنها تطير في الهواء لدرجة أنني كنت أعتقد أن هناك ثعبانًا سوف يسقط عليّ وأنا نائم ..

و فجأة رن جرس تليفوني بحركة يائسة وبصوت النائم قلت : ألو مين ؟!

- أنا أبوك وعايزك تترك الغرفة دي يا حبيبي. سلام ..

انقطع الخط وظل الصراع داخلي حتي تباشير الفجر، فالصوت فعلاً هو والدي.. ولكن كيف ذلك ؟! فهو توفى منذ زمن بعيد

بدأت أتقلب كأني نائم علي الجمر وأنا أفكر فيما حدث وبدا النعاس يداهمني حتي هزم التفكير، ورحت في نوم عميق .

استيقظت في التاسعة صباحًا لأغسل دماغي من المكالمة التي حدثت بالأمس، فتحت التلفزيون وبدأت أتابع فيلمًا عن الجريمة والمخدرات والعنف وأرى مشاهد الإثارة والشهوة لأخذ جرعات جديدة من السم البطيء عل ألسنة أبطال الفيلم .

أغلقت الجهاز وتحركت نحو الحمام القديم المجاور ؛ فعلي الرغم من أن الساعة كانت تشير إلى الحادية عشر صباحًا إلا أن شبح الظلام كان يخيم علي المكان

ودارت رأسي وشعرت كأني وسط أمواج من العرق ؛ عندما رأيت الفتاة التي تمنيت أن أتزوج مثلها جاءت خارجة من الحمام وكانت العباءة السمراء تضغط علي أردافها فتصنع طوفانًا من المشاعر داهمتني ..

وفي حركة رقيقة رمت بالعباءة لتظهر شبه عارية ورمت بنفسها علي سريري القديم وهي تحرك أصابعها الجميلة الشديدة البياض علي جسدها ..

بلعت ريقي وأنا أتحرك نحوها وكأني مربوط بسلسلة وهي تمسك طرفها وانهالت على شفتي بالقبلات الحارة وهي تضغط علي كتفي .

تاهت أصابعي بين خصيلات شعرها وبدأت أطفئ نيران جسدها المتعطش للأحضان.

ولم أدر بنفسي إلا وعمي مجدي يطرق علىَّ الباب فنظرت إليها ولم أجدها ونظرت إلى المرآة فوجدت أثر الروج على شفتي وكذالك علامات أصابعها موجودة على زراعي وفوق كتفي

فتحت الباب وبادرني عم مجدي "أنت الساكن الجديد"؟

وقبل أن أنطق أكمل كلامه بنفس الصوت العالي .. "عايزين خمسة جنيه علشان الزبالة .. الشهر مقدم يا أفندي"..

كان كل ما حولي يدعو إلي الشك حاولت أن أقهر هذا الإحساس فأخذت المترو إلى الويلي ؛ حيث افتتاح محل ملابس صديقتي بطة ..

ظللت غارق في أفكاري طوال الطريق ودخلت الافتتاح كالسكران ..

اصطحبت كرسي لأجلس عليه بعيدًا، وبدأت أفكر في الفتاة التي رأيتها في حجرتي، وأفحص بعيني الموجودين في الافتتاح، وأنا أنادي علي بطة: "هاتيلي فنجان قهوة بسرعة وحياتك.."

أتحفنا المطرب وهو يفتح فمه الواسع لتظهر أسنانه التي أكلها السوس وأنا أقول:"أيوه أيوه كده يا فنان تسلم قول كمان.."

وبعد قرابة الساعة انطفأ الحفل وسكت الصخب، مفيش في جيبي غير جنيه واحد .. ركبت المترو المتجه للجيزة ..

وحينما وصلت إلى باب البيت .كانت حلقة من النساء متهامسات في صمت، وتحرك إحداهن عينها نحوي ويبدو على الآخرين ملامح الإشفاق عليَّ وسمعت بعض الكلمات كانت تلك المرأة تتمتم بها إلى صاحبتها ((هي الجنية طلعتله ولا لسه والنبي صعبان عليا)).

صعدت درجات السلم نحو غرفتي وكلماتها يتردد صداها بداخلي كأنها قالتها لآلاف المرات وأحسست بدوار وكدت أسقط من أعلى السلم وقفت لألتقط أنفاسي وأخرج المفاتيح من جيبي ؛ سمعت الهمس يعلو مرة أخرى لتقول إحداهن : " أكيد لسه ما شفش حاجة.. ده لو شافها ممكن يتجنن .."

فتحت الغرفة بحذر ورعب وبدأت أرتب كتبي وأجمع ملابسي استعدادًا للرحيل

نزلت مسرعًا تاركًا مفاتيح الغرفة على السرير، كانت النساء قد تفرقن إلا من تلك العجوز الكبيرة عند مدخل الباب قالت بصوت يسهل عليَّ سماعه دون تركيز : "ربنا يسترها معاك يا ابني .. منه لله جمعة السمسار".

ظللت في دهشة شاردًا في التفكير، لم أفق إلا على صوت السائق : "الحمد لله على السلامة ..الأجرة يا جماعة .. أحنا وصلنا البلد خلاص".

فتحت شنطتي لأخرج المحفظة من أسفل الكتب ؛ لأجد ذاك القميص الذي أعرفه عن ظهر خوف مُخبأ في ملابسي إنه ذالك القميص الذي كانت ترتديه عندما خلعت عباءتها !!

* * *

عشرة ولا خمستاشر

عشة فراخ، وزريبة فيها جاموسة، وأتان صغيرة، وحجرتان في وسطهما حمام، قفص للكتاكيت وحصيرة وغلاية وخمسة مصاحف علي رف مصنوع من جريد النخل

صياح الديك في العشة كان متفقًا تمامًا علي موعد نهيق الحمارة في الزريبة ..

جدتي أم حسن تمتلك هذا المكان ؛ وبذلك هي رقم أثنين في بلدنا من حيث المكانة والمنصب بعد العمدة .

تصحو كل يوم علي صياح الديك ونهيق الأتان لتصلي الفجر، وتجلس منحنية القامة قليلاً تكنس الفضلات من تحت الفراخ وتحلب الجاموسة ..

تبنيت أنا مسئولية إحضار الفطار لها، وخاصة في أيام الشتاء ؛ فهي تجد صعوبة في الذهاب بنفسها لإحضار ما تريده في البرد القارص ،

هي تعيش بمفردها منذ موت زوجها وسفر أبنها الوحيد بلا عودة ..

كانت تتحكم في جميع خلق الله لأنها الوحيدة التي تقرأ القرآن وتحل العقد، وتذهب إليها النساء لزواج بناتهن العوانس .

أمرتني مرة أن أضع لها مصباح في غرفة النوم لأنها كسرت اللى كان بها وهي تضرب الفئران بعصا طويلة .

و بينما أنا خارج من الحجرة نادت عليّ أن أحضر لها ليفة الغسيل التي نست أن تأخذها قبل الدخول إلي الحمّام

حككت رأسي وقلت أمرى لله .. ومددت يدي من جانب باب الحمام الموارب لكي أرمي لها الليفة وعلي الرغم من قربي بالباب إلا إنها طلبت أن أمد ذراعي أكثر وسحبت يدي وهي تقول : " قرّب إيدك كمان .. أيوه كده .."

و فجأة مسكت يدي وبحركة بطيئة سحبتها داخل الحمام وهي تضحك بصوت يشبه كركبة العربة

لم أدرِ بنفسي إلا وأنا بجانبها وكنت يومها في الثالثة عشر من عمري، ولم أري جسد امرأة عارية في حياتي ..

سقطت الليفة من يدي في تشط الماء الساخن وفقدت الكلام الكثير الذي كان في نيتي أن أقوله، وشعرت برعشة في جسدي وفقدت الوعي وهي تقول :" فوق يا واد فتح عينك .. أنت مسطول " وهي تحرك يدها علي فخذي بائعة للمبادئ .

و تمرر يدها الأخري فوق صدري الذي كان يبدو خائفًا وهو يختبئ بين ضلوعها المخنية ..

صعب أن أتخلص من هذا الموقف بعد أن تهورت شفتاها وطبعت في كل مكان في جسدي، فأرشقت اظافري محاولاً الهروب ولكن جسدها العنيف رماني في الطشت قتيل .

و انسجمت المراة مع حركة أصابعي اللاإرادية علي ظهرها العريض

شعرت بنهديها يحاولان في عنف تجريدي من ملابسي في محاولة مني للخروج من الحمام ولكنها أوقفتني قائلة :" أبقي تعال كل يوم، المرة الواحدة بخمسة جنيه "

ابتعدت عن العجوز وأبتعدت عني بعدما شحب وجهها ولمحت في عيونها التعب والراحة معًا

أما أنا فقد راودني أن أعاود النظر إلى الخمسة جنيه وأفحصها، وقلت في نفسي : " لو كل يوم خمسة جنيه .. يعني في الشهر بكام؟!! .."

وقفت خلفي تلبس ثيابها لتخفي النمش المنثور علي جسدها النحيل، وقالت في إنكسار : " أيه يا وَلَهَ .. سرحان في أيه يا وله ..ناولني الشبشب إللي عند الباب ده".

خرجت من الحمّام وهي تقول :" ربنا يفك ضيقتك يا بني زي ما فكيت ضيقتي" ..

ثم مالت عليّ وأنا ماشي من منزلها وقالت : "أنا عارفه إنك مستئل الخمسة جنيه ؛ لكن الجاية هتكون عشرة جنيه "فنظرت في عينيها في حداقة ، وحملت هدومي علي كتفي كالقدر الأسود، وخرجت وأنا أصب اللعنات علي العجوز صاحبة اللذات

و بدأت أهزي بكلمات : "مش عايز عشرة ولا خمستاشر .. مش عايز عشرة ولا خمستاشر .. مش عايز عشرة ولا خمستاشر" .

* * *

الـ"تي شرت" اتسرق

يا ناس .. يا خلق يا عالم الـ"تي شرت" بتاعي كان على الحبل واتسرق ..

عقارب الساعة كانت تشير إلى العاشرة صباحًا عندما وقعت عيني على مكان الـ"تي شرت" المنشور علي حبل البلكونة القديمة ؛ فوجدته فارغًا ..

بخطوات هادئة تحركتُ نحو البلكونة التي لا تبعد عن أرض الشارع سوى مترين فقط، ولا أدري لماذا طرق إلي تفكيري أن الـ"تي شرت" لم يغادر المكان حتى وهو مسروق

تحول سؤالي إلى زعيق وعصبية وإتهمات إلى الجيران ،، ولكن لا حياة لمن تنادي

جلست على كرسي قديم في البلكونة لكي أتابع رد فعل الجيران ؛ فوقعت عيني على صورة الزعيم الراحل "جمال عبد الناصر" وهي تغطي شرخ عميقًا في حائط تلك الغرفة التي أسكنها في ذلك الحي الشعبي المعروف من أيام الإحتلال .

مرت ساعات عديدة وبدأت أتناسى ما حدث .. وفجأة !! يد خفية ترمي بالـ"تي شرت" في البلكونة وأنا سائر نحو البلكونة ؛

لأجدها جارتي التي أسمع رنات هاتفها ليلاً وهي تتحدث بصوت ممزوج ما بين الحنان والنعاس ،و أشعر بحركتها في وسط الليل تهز إحساسي وتصل به لأعلي درجات الرومانسية ..

يمامة جميلة فرنسية العود "ملسنسة الشهادة" ؛ أي حاصلة علي درجة الليسانس .رمى بي القدر لأسكن بجانبها

فارق والدها الحياة وهي صغيرة ،، وغدر بها القدر فأخذ أمها وتركها وحيدة .. تزرع الورود علي جانبي الشباك

تتراقص السلالم من كمية البرفان التي تمن بها هذه الجميلة حين تسير عليها ..

أقاربها يزورونها ولكنها أجمل ما فيهم علي الإطلاق .

و قد نسيت اسمي وتي شرتي عندما رفعت رموشها لتبدو عيونها الساحرة وهي تُسلل نظراتها نحوي وكأنها أشعة الأوزون الخارقة التي تجبر جبيني أن ينزف بالعرق وأنا أحرك عيني على جسدها الرشيق الذي يعجز علم الجغرافيا عن وصف تفاصيله

قالت – وهي ترفع حاجبها وتلملم أطراف الروب المفتوح بعد ما ظهرت حمالة الكتف اليمنى فوق كتفها الأبيض والخصر المشوق بعد ما وضعت قدمها علي عتبة الباب المرتفعة قليلاً علي أرضية شقتها التي طالما حلمت أن أعيش بداخلها ولو لحظات :

"استاذ محمود .. ده تي شرتك ؟ "

و عندها تلجمت ولم أنطق وأنا أنظر إليها في ثبات ثم ألقت به علي كتفي قائلة : "أصل الهوا رماه عندنا"

و زيق الباب في حنية وهي تغلقه في حنان ورقة لم أعهد لهما مثيل ..

عشرة ليالي متتالية وصورتها لا تفارق خيالي . . أتقلب في نومي وكأن الفراش عيدانًا من لهيب، تقفز إليّ في خيالي .. وفي سقف حجرتي تخطف مشاعري وتخطف أنفاسي ..

عندما تفتح بابها ينقبض قلبي وأفيق من نومي على باب حجرتي المجاورة لبابها لأرى ضفائر شعرها وقد حركها الريح لتبدو من فتحات الباب الموارب ..

حقًا هي ساحرة .. عاشت حياة صامتة لم تتحدث كثيرًا وأصابتني بمرض التفكير

قررت السفر إلى القرية حتى أستريح هناك، حيث الجلوس على الترعة وسط المياه والخضرة ومنظر السواقي الجذاب .. وصوت عمي فتحي الأعمش، هو يضرب الأوتار في عصبية ويصيح في موالـه : يا عين يا ليل ويتمايل معه السكارى والمساطيل..

و كعادة أمي سألتني: "إيه أخبار مصر ، وأخبار الكلية والامتحانات؟ وربنا ينولك اللي أنت طالبه يا حبيبي .. قولي كنت

بتاكل لحمة ولا بتبخل على نفسك ؟ يا ولاه مالك .. مالك ساكت ليه .. مش بتتكلم ليه !؟ أكيد في حاجة شغلاك .. طب أقول لك حاجة هتفرحك .. أبوك ناوي يخطبلك !!

أيوه أنت عايز الحق بنت عمك عروسة زى القمر واكتفيت بالنظر إلى أمي بعين الرأفة تصحبها ابتسامة خفيفة

هي لا تدري أن جارتي الجديدة قررت احتلالي .. لا تدري أن نهديها وضعا السلاسل في يدي وشفتيها سحبت شمس الحرية من أيامي، الروب المفتوح أصبح سجنًا يطاردني .

أمي علي حق .. فأنا لابد أن أتزوج من البلد التي نشأت فيها وعرفت أهلها .. وهذه عادت أهل الريف، ولكن كيف أتخلص من نافورة التفكير التي أطلقتها جارتي في عقلي .

حزمت حقائبي وعدت إلى القاهرة بعدما قدمت استقالتي من العودة إلى البلدة مرة أخرى والخروج من خرائط الأهل والأقارب

لقد أصبحت في قومي مجهول النسب، لا يعرفني أحد حتى الأشجار والأنهار .. لقد اخترت أن تموت جذوري في بلدي من أجل هذه الساق التي تداعبني وهذه الشفاة التي تطاردني

لن أرث من أهلي شيئًا . لا أرض ولا ذهب ولا سروال ولا أزهار ؛ قررت أن أمحو أهلي وبلدي من أجل حبيبتي ..

خمسون ألف جنيه تحويشة عمري دفعتها مقدم شقة حتى أضمن الأمان .. كنت أعلم أن الزفة سيغيب عنها أولاد بلدي والمهر سأدفعه من عرقي ولكني كنت سعيدًا لأنني سأفوز بفتاتي ..

نزل دخان سيجارتي حول أصبعها فصنعت منه خاتم ورسمت علي يدي خريطة وكتبت بداخلها :"كلنا أغراب" وأشارت إليّ بإصبعها وأغلقت الباب

ذهبت إلى حجرتي لأحارب النعاس وأنا أنظر إلى الأمطار من فتحات الشباك لم أدر بنفسي إلا في اليوم التالي وأنا أقف أمام المرآة مندهشًا من ظهور تلك البقعة الكبيرة علي جسدي .

لم أفكر وعلي الفور وجدت نفسي أطرق بابها لأخبرها بهذه الكارثة !!

ذهبنا إلى الدكتور المختص وجلسنا في الدور .. أمرها الدكتور بالخروج أثناء الكشف ولكني أصررت علي بقائها باعتبارها خطيبتي ..

صمت الدكتور دقائق وهو جالس على مقعده الخشبي ،و طلب مرة أخري خروجها لكنها رفضت

ثم قال : إن هذا مرض معدٍ وليس له علاج ..

تظاهرت أمامها إني رضيت بقدري ونصيبي، ثم لبست ثوبي ونزلنا من المستشفي وأنا أضم يدها لحو زراعي ؛ ولكنها سارعت بسحب يدها بشكل بارع خوفًا من العدوى

فنظرت إليها في دهشة فسقطتْ علي الأرض باكيًا، ولمحت في عينيها الرغبة في الرحيل ..

فقررت في شجاعة أن أتركها وأعود إلي بلدي حيث صورتي وأنا صغير .. ويد أمي التي لا تخاف العدوى

***

أنت ابن السيد أبو علي يا وله ؟!

السيارة تامة ما عدا الكرسي الأمامي بجوار السائق ؛ أمين شرطة وزميل له يعملون في القسم التابع له الموقف، يريدان أن يركبا في الكرسي الأمامي .

و في نفس الوقت فتاة جميلة طويلة القامة فرنساوية العود .. يميل وسطها إلي الامتلاء قليلاً ترمي بنظراتها إلى بلطجي الموقف، وكأنها تريده أن يتوسط لها للركوب في الأمام !!

شنطة سفر كبيرة يخرج منها دبوسان متلاحمان من النهاية تجرها منهما بصعوبة .

البلطجي الذي يرتدي بنطلون أزرق وقميص أحمر؛ أنتصر بمهارة فائقة علي الأمناء ..

و بالفعل ركبت الفتاة في الأمام والسائق محمر الوجه معقود الحاجب يشيط غيظًا بعدما أمره البلطجي أن ينطلق بالسيارة

كثر الكلام في العربة وكثرت التعليقات علي موقف البلطجي والأمناء ..

بصراحة هو موقف غريب أوي لما كل الناس تترجي في البلطجي وتبوس رأسه وست كبيرة مريضة تجلس في آخر العربية

تقول :" صلِّ علي النبي" وهو يرمي بفنجان القهوة ويقول :" اللهم صلي عليك يا حكومة " .

ثم ضغط السائق بعصبية علي زر القيادة والكل في صمت ومازالت الفتاة تجلس في الكرسي الأمامي

فقد ارتدت نظارة سوداء لكي تخفي بها تلك السهام المنعكسة في المرآة، معبرة عن عين لامعة لفتاة في بداية العقد الثالث من عمرها ..

طوال الطريق . السيارة تدوي والسائق يضغط علي البنزين بقدمه وعلي الكلاكس بيده

و رما بي القدر في الكرسي الثالث بجانب الشباك أتابع نظرات السائق نحو الفتاة وأقرأ في عينه رغباته المكبوتة في أن يفرغ علي فمها مئات القبلات ويرمي بنفسه في حضنها حتى يرتوي

و في لحظات كاد قلبي ينتفض ؛ فالسائق ليس في كامل تركيزه وبدلاً من أن يأخذ الفتاة في أحضانه تأخذنا السيارة المجاورة لنا في أحضانها .

ملل .. الطريق طويل، وتحكم سلطان النوم في عيون الركاب ؛ فرمى كل منهما رأسه على الآخر.

السائق يشعل سيجارة من الأخري ومازال يختلس النظـرات إلى الفتاة ..

أخرجت كتابًا لأقرأه وأقتل به الملل

" أنت من البلد يا أستاذ؟! شكلك بتعرف تقرأ، خذ اقرأ لي القايمة دي يا بني " ورما بها ذلـك الرجـل الـذي امـتلأ وجهـه بالتجاعيد وكانت نظرات البؤس تعلو عينيه

و بعدما رفع الكلفة بيني وبينه قال :" أنت ابن السـيد أبـو علي يا وله ؟! أنا عارف أبوك، راجل نكدي وبتاع مشاكل . أنت مش بتقرأ ليه ؟! اقرأ وقول لي أنا صرفت كام، وبنتي خدت كام"

قلت له: " يا حاج العملية مش محتاجـة حسـاب .. كلـه فـدا بنتك.."

فنظر إليّ نظرة قاسية ويقول :" يا جدع الولية خربت بـيتي وكانت عاوزه تشيل الحيطان وتوديها لبنتها .. عليّ الطلاق لتقرأ ..

فأنكمشت في مكاني خوفًا من أن يتطاول عليّ بيده التي كانت تبدو كالمرزبة ؛ ورحت أنهمك في قراءة القائمة :

" خذ عندك يا حاج : ٣٠٠٠ ثلاجة

٣٢٠٠ غسالة أتوماتيك

و حصيرة وسجادة ومكواة وغلاية ...."

وفجأة وأنا اقرأ وأرفع حاجبي نحو الرجل، انتبهت كأنما تلقيت كرباج شدَّ أعصابي عندما لمحت السائق يتبادل أرقام التليفون مع تلك الساحرة التي احتلت الكرسي الأمامي .

هرشت في رأسي وأنا أقول :" كده حرام.. كده غلط .. " فصاح الرجل بجانبي وهو يقول :" عليَّ الطلاق عندك حق .. كده حرام .. وكده غلط .." وأنا أقول له :" أنا لا أقصد موضوع القائمة ولا بنتك يا حاج .. " ولكن لا حياة لمن تنادي

أقسم الرجل ونوي علي طلاق البنت، وأنا نيتي تلك الساحرة التي تجلس بجوار السائق وكل منا علي نيته ..

و كان شريط الصحراء الفيومي يجري في مخيلتي مع عجلات الميكروباص السريعة، وطلت علينا المقابر برأسها حتى تعطي إنذار للسائق أن يلتزم الأدب مع الفتاة والأمن علي الأرواح .

و لكنه لازال يمارس عادة السائقين في مطاردة الجميلات !

الأجرة يا جماعة .. الحمد لله على السلامة "خذ ٣ من ٥٠ يا سطى وهات الباقي " "و أنا ليه باقي ميه يا جماعة " "طب لموا الأجرة مع بعضكم" "نزلني ابشواي" " لو سمحت .. وأنا رايحة سنورس يا بني " " طب على جمب يا سطى" "عليَّ الطلاق لأطلق بنتي .." " سبوه يا جماعة محدش يقول له علي الأجرى" "السواق مش معنا ولا أيه" " مش بيرد ليه !؟ أصل السواق

سرحان " "فين شالي وفين خلخالي .. دنا شرياهم من سوق إمبابة .. أصل في مصر اللبس رخيص عن بلدنا " " هو السواق معانا ولا سرحان .. علي جنب يا سطى .. حاسب .. وقف .."

حادثة .. أنا مش قلت الكلام ده من أول الطريق ! وكل شيء طار .. الشال والخلخال في جانب .. وقائمة جهاز البنت ذهبت مع الريح .. نظارة الفتاة أصبحت تغوص في الرمال ..و الدماء اختلطت بالوجوه ..و مازال الرجل الأخير ينادي :" أنا ليه باقي ميه يا سطى .."

و فجأة – وأنا أمسك ذراعي المكسورة وأغوص تحت الرمال ..فجأني الرجل قائلاً :" هو أنت مش ابن السيد أبوعلي يا وله؟!"

* * *

خبر أسود ومنيل

كان يومٌ أسود ومنيل لّما "عبد العليم" المخبر قالي إنك مطلوب عند رئيس المباحث ؛ تبّدل شكلي وتغيرت ملامحي ونظرت في المرآة فخُيل لي أني رجل آخر غريب لا أعرفه، وأصبح قلبي تأكله الرجفة من الداخل ؛ لأني لا أعرف ماذا يريد رئيس المباحث ..

دخلت غرفة كبيرة ورفضت أن أشرب ليمون المباحث، وكان هناك إحساس يلازمني أن هناك كارثة منتظرة

زادت ضربات قلبي والجرأة تسربت من عروقي عندما مال عليّ رئيس المباحث، وهو يضع يده اليمنى في جيب بنطلونه الأزرق المائل إلى لون السماء، ثم نفخ دخان سجارته في وجهي و هو يقول : " مين اللي قتل علا ؟!

فنظرت في ركن الغرفة ؛ حيث يوجد قائمة من المسجلين خطر والخارجين عن القانون وأدرت رأسي ببطء وأنا أشعر بأن الدنيا كلها وقعت فوق راسي و قلت : لا أعرف

رد وهو يتحرك نحو فنجان الشاي : أنت مسكين ضيعت نفسك ليه ؟

فشعرت بصداع رهيب ثم سأل الضابط مرة أخرى : هل لأنها فضلت زميلك عليك ؟ وكان السؤال أصعب من الهم علي القلب

بدأت أتماسك وأعود إلى نفسي، فقلت : أنا لم أقتلها

وضحك ضحكة جافة وضرب الأرض بقدمه وهو ينادي علي حارس الحجز وقال أدخله الحجز؛ فشد الحارس زراعي في عصبية ودخلت الحجز وأنا جسمي كله مهدود .. خائف .. مرتعش .. ماذا أفعل ؟!

الحجز ظلام والناس فيه بتنام على الأرض وتوترت أعصابي فلم أستطع النوم وبدأت أهذي بكلمات غريبة

بعد إذن الإدارة هقول كلمتين من علي النضارة، بعد إذن البيه المأمور، أنا عايز أقف في الدور .. هقول موال الحجز كله يسمع .. حتى الحديد يسمع..

و أفزعتني المفاجئة عندما وضعت يدي في جيبي ووجدت منديل علا مازال في جيبي حتى في الحجز ..

يا لها من فتاة جميلة في تلك الليلة المشئومة التي ذهبت فيها لأزور زوجها وصديقي "صافي أفندي" فلم أجده ولكني وجدتها وصدرها يحاول في عناء أن يطل من فتحة ثوبها الأصفر الجميل

و كانت أردافها تضغط علي الفستان يا لها من جغرافيا جسدها الجميل، الجبال مرتفعة والمنخفضات واضحة المعالم، لفة وسطها من تحت الفستان تحتاج لألف عين حتى تراها ولحم بطنها مشدود شدة قوية ليس بها ثناة واحدة والشعر يرسل فوق تلك الأكتاف المستديرة والشفايف تلمع وهي بتقول :

"أي خدمة ؟.. صافي أفندي حس بملل ونزل القهوة .. "

فألتفت إليها بنظرة ثاقبة ؛ وقلت : أنا مستعد أقتل صافي أفندي والملل وكل القهوة علشانك يا عسل .

فقاطعتني بصفعة قوية على وجهي ؛ فتمالكت أعصابي ونظرت إلى جسدها كما ينظر الطفل الصغير إلى قطع الحلوى عند البقال

رفعتْ إليَّ وجهها وبرقت عيناها وقد زادت ضربات قلبي أمام جسدها الذي كان يبدو كأنه قمة ثلج أبيض

توترت وشعرت بالدوار وذكرتها حينما قالت لي بحبك .. فقالت : أني كنت أكذب عليكَ، ورفعت إصبعها في وجهي مشيرة بعلامة تهديد إذا اقتربت منها

ولكن لذة الجنس صرخت في أعصابي فلم أتذوق طعم القبلات منذ زمن بعيد ،و بلغة الجائع الذي لم يتزوج بعد رشقت أظافري في جسدها وأحسست بصدرها يلتهم جسدي وبدأ

جسمها الممتلئ يتتطوع في محاولة دفاعية منها .. ونامت شفتاي في باطن صدرها ولكّنها أهدتني ضربة عنيفة على رأسي

رفعت وجهي بصعوبة وألتفت يدي حول رقبتها وهي تصرخ وتقول : هموت يا مجنون .. هموت

إلا أن شكل الدم وهو يسيل من رأسي لم يشعرني بأي شيء، فصرخت بشدة وهي تفارق الحياة .. فمن جنوني صرخت وأنا أضرب نفسي وأقول :هذا مستحيل .. مستحيل

و استيقظت علي صوت محمود صديقي وهو يقول لي : أيه هو إللي مستحيل قُم بقى وكفاي أحلام .. الساعة سبعة يا أستاذ

* * *

لجنة امتحان

كانت لجنة الامتحان تعيش جو من الخوف والتوتر المسبوق بتوزيع الأسئلة على الطلاب .. فبعد قليل سيكون امتحان أصعب مادة في الصف الثاني الثانوي التجاري

دخلت الطالبات اللجان وكأنهن يدخلن السجون، وبدأت كل بنت تمارس هوايتها المعهودة في الغش والخروج من ورطة المادة الصعبة ،و المدرس المراقب يتجول ذهابًا وإيابًا ببين الصفوف.

و يتبادل النظرات مع زميلته المدرسة التي تركت اللجنة وخرجت لتقف أمام الباب ولسان حالها يقول :" ليه يا رب أبتليتنى بهذه اللجنة "

و لم يكن المدرس يعلم سبب خروجها إلا بعد أن وقعت عينه على المقعد الثالث من جانب النافذة، حيث تجلس "نرجس" ؛ تلك الطالبة التي نزحت إلى عشوائيات المدينة قادمة من الريف تحمل اسمًا متمردًا كطبيعتها .

و لقد فهمتْ الطالبات كالعادة من هي "نرجس" ؟! فهي لا تشغل بالها بالمذاكرة ؛ لأنها تستخدم كل الأسلحة وتسلك كل الطرق من أجل النجاح .

و لم يعلم المدرس أن طريقتها هذه المرة يصعب مقاومتها فهي تخرق قوانين الطبيعة قبل قوانين التربية والتعليم.

فكانت تلك اللجنة الصامتة الهادئة تحمل كل المتضادات الكفيلة لو اصطدمت لانفجر الأشخاص وخرج كل واحد عن سكونه.. ولكن كالعادة تبقي النار مختبئة تحت الرماد ..

و مالت أحدى الطالبات المحتشمات على المدرس لتهمس له وهي خائفة من ناحية نرجس، فرفع عينه في بؤس ليري ما لم يخطر على بال ..

نصف ساعة مضت من زمن الامتحان والمدرس يتجول باللجنة ولكنه في حالة قلق مكتومة، ويختلس النظرات ناحية المقعد الثالث بجوار النافذة، حيث الثدي النافر الكبير الذي استعانت به نرجس بعدما فكت أزرار قميصها الأبيض لتسقط حمالة الكتف الحمراء وتكشف عن نهدين كبيرين تظهر من أسفلهما ملزمة كبيرة تشع حرارة ساخنة لقربها من درجة حرارة الثدي الملتهب .

المدرس في دهشة وما زال يمارس النظرات المختلسة نحو الفتاة.. والثدي يقفز فوق المقعد ليخفي أسفله الملزمة التي تقلبها أصابع نرجس وتغش منها الإجابات النموذجية في لا مبالاة وعدم اهتمام بالآخرين ..

و لا أحد يتصور أن وراء هذه الجراءة شبح يقف بالخارج . فقد تعلم المدرس من خلال تجاربه السابقة أن وراء كل طالبة جريئة رجل يحميها ..

و بدأت الهمهمة تسري في الطالبات ،و ازدادت اللجنة بلبلة، وبدأ التوتر يظهر على المدرس عندما تذكر الصفعة القوية التي تلقاها زميل له من سائق التوك توك .. عندما علم أنه تسبب في عمل محضر غش لخطيبته التي أرشدت عليه في أثناء جلوسهم علي مقهى مقابل للمدرسة .

فعاد المدرس إلى التفكر في رد فعل يضمن له الخروج سالمًا من المدرسة ؛ وبدأ يتذكر المواقف الشبيهة لهذا الموقف حتى يتصرف بحكمة .. فأحيانًا يلعب الزمن دورًا مهمًا في ردود الأفعال .. فلا استثناء لأحد ولا يوجد من هو فوق القانون و لكن الضغوط الاجتماعية والظروف الزمنية قد تشق القانون أحيانًا .

ثم هدأت اللجنة تمامًا واستدار ناحية المقعد المرصود، وبدا التحرك نحو الثدي النافر وتصاعد رد الفعل فجأة عندما مد يده ليلامس الثدي وفي نفس اللحظة أخرج الملزمة من أسفل الملابس ليضعها أمام الطالبة محركًا رأسه لها بالموافقة علي الغش في صمتٍ كامل ..

من نظرة الفتاة نحو المدرس الذي أكمل الموقف بإغلاق أزرار قميصها دون مقاومة منها، ومن نظرة المدرس الممزوجة بالأخوة والحنان والاحتكار معًا للطالبة مرورا بنظرة طويلة من الطالبات بها معان متداخلة نحو المدرس ونحو زميلتهم ويتوقف القلم في يد نرجس لحظات وهي تلملم قميصها وتختلس النظرات نحو المدرس الذي حرك وجهه ناحية الباب

تزاحم الطلاب علي الباب عند الخروج من الامتحان، والكل يتحدث عن الموقف الصامت الذي صنعه المدرس مع نرجس،

و شق المدرس طريقه إلي خارج المدرسة ليصتدم بشخص طويل لا يعرف له سن ولا وجه ولا رأسا ؛ فهو يحمل خريطة إجرامية واضحة المعالم من ضربات المطاوي في أركان وجهه الأسمر المخيف، ليفتح أسنانه الذي أكلها السوس والدخان ويصيح وهو متحمس مبتسم ليهزم الخوف داخل المدرس الذي انكمش تحت

جناحه قائلاً : طلبات الباشا عندي، رافعًا وجهه نحو محسن صاحب المقهى المقابل للمدرسة

وعادت الجرأة إلى المدرس وشعر بالسعادة، وهو يحرك عينه بسرية تامة ليراقب عربات الكبدة وسائقين الموقف وزبائن المقهى، والكل يقدم التحية والهيبة للمدرس لمجرد أنه في ضيافة هذا الشخص الطويل ..!

وطوال الطريق في أثناء العودة إلى المنزل ينفخ السيجارة ويتمتم مندهشًا من السعادة التي صنعها عندما تصرف بمثالية بعيدة عن التفكير

* * *

نساء حول البيتزا

كافتيريا كبيرة أسفل كلية من كليات القمة . حلقات من النساء الجميلات والصدور النافرة والبناطيل اللجن والفيزون الشفاف، والشعر الأصفر الذابل والأسود المزروع لسيدات بعد عمر الأربعين وحفنه من فتيات الثلاثين من العمر ..

تشعر عندما تسلم عليهن بأصابع دهنت بمساحيق التجميل، وضحكات عالية تهتز بعدها الأرداف وبعض مذكرات ملخصة لمواد التعليم المفتوح منشورة على المقاعد كتب عليها أسماء أصحابها من الأرامل والمطلقات .

وأطباق البيتزا تتسابق إلى الأفواه الجائعة .

ويندس الشباب كلٌّ إلى صديقته المتنكرة في ثياب العفة والأدب ولا يستطيع أن يعرف لون بشرتها الحقيقي إلا بعد وضعها في بحر اليوسف بالفيوم أربعة أيام تغسلها المياه الجارية ..

ثم تهدأ الضحكات العالية بالتدريج عند صلاة الجمعة .. وتنسحب فتاة بحذر متجهة نحو المدرجات حتى إذا اتصل بها زوجها تفتح التليفون ليسمع صوت الدكتور فيعلم أنها في غاية الالتزام وسرعان ما تعود إلى الثرثرة والضحكات مع الحلقات

المختلطة من الرجال الهاربين من ضغوط العمل والبيت طوال الأسبوع، والنساء الباحثات عن فرصة لهواء جديد خارج البيت

و فجأة تقول هالة : أوه .. يجنن .. مين ده ؟!افتنظر أماني قائلة برقة الأنوثة : لا .. ده هالة محرومة يا بنات .. أصل جوزها مش عايزها تكمل تعليمها بعد الدبلوم .. وكمان بيمنعها من لبس البنطلون .. يعني رانيا اللي بتحافظ أوي .. دا جوزها بيمنعها تصيف في شرم علشان بيغير عليها ... وهي بتصيف في الجامعة كل يوم جمعة .... أيوة يا أختي .. علشان الراجل بيحرس العيال في البيت .. عندك حق والله أنا جوزي بقي فرحته يوم الجمعة .. بيعاكس الستات في التليفون ..

ثم تميل مدام عُلا نحو أشرف وتعاتبه على مغازلتها في نصف الليل قائلة : أبقي قول سلام عليكم في أول المكالمة .. لأن البت بتاعة الثانوية بتستخدم تليفوني كتير.. فيضحك وهو يحرك عينه علي فتاة تنفخ دخان سيجارتها في الركن المقابل .. يا سيدتي البنت وأمها واحد .. أنا افتكرته جوزك .. علي فكرة جوزي بيشتكى مني وبيقول إني مليش في الرجالة .

و تتوالي الضحكات العالية .. عندها تطلب سعاد كرسي ؛ لتجلس عليه فلم تجد وتظل مسندة بكتلة اللحم الملفوفة حول الوسط العريض علي صديقتها التي يصعب عليها التنفس ..

ولكنها تتنفس بكل راحتها بعدما تزوجت للمرة الثانية من صاحب محلات ذهب يكبرها بعشرين عامًا .

قصدك مين والنبي الراجل بتاع الترم الخامس .. ولاّ صاحبها بتاع العربيات .. آه عرفته ده بتاع الواسطة اللي هيشغلها مذيعة قد الدنيا .. ويسحب خالد الحديث بفلسفته المعهودة ؛ فهو الوحيد الحاصل علي بكالوريوس قبل الالتحاق بالتعليم المفتوح : يا جماعة المرأة مظلومة .. من حقها تتعلم وتتحرر وفجأة تندفع سناء بصدرها العريض وجسدها الممتلئ وتقول : ومن حقها تخلع جوزها كمان ..فيضحك الجميع ويكمل خالد قائلاً : آه بجد من حقها تخلعه حتى لمجرد إنه يعاني من فجوة بين أسنانه ..

يا سلام يا خالد يا عبقري .. فجوة بين أسنانه ! .. طب واللي عندها فجوة واسعة جدًا تعمل أيه .. خلاص يبقي حقك تعويض.

فتضحك مدام عفت بأسنانها التي أكلها السوس، ولكنها لا تنسى أن تدهنها بنصيبها من المكياج مثل وجهاها العجيب الذي يشبه مثلث بارمودا الذي يبتلع أي رجل ضل الطريق ..و نظرت إليهم وهى تقول : تعالوا نتكلم في المهم

" طب أيه بقي المهم يا أختي ".. ونطقت سهير كلمة يا أختي بالشين (يا أختشي) فأكملت عفت كلامها : أيه رأيكم نعمل جرنل ..؟!

و هنا دخلت امرأة ببنطلون لازق على جسمها الملفوف وشعرها المختبئ تحت طرحة صغيرة تظهر نصفه الأمامي وجسدها يشبه دولة واضحة المعالم الجغرافية ..

فقام الكل يتبادلوا الأحضان .. : أيه ده فينك يا مدام عايدة ؟ و أيه الحلاوة دى كلها ؟! أصلي خلاص بقيت بمتحن في الأقاليم .. هناك الدنيا حلوة والنجاح مضمون .. طب خدينا معاكي يا تانت والنبي أصل أحنا هنا دائمًا ساقطين ... تعالي يا حبيبتي ما هو لازم حياتك يبقي فيها تغيير .. تغيري نفسك وتغيري امتحانك وتغيري الراجل كمان .... عندك حق يا قلبي والنبي بس موبايلك جميل يا تانت عاجبك ؟ .. آه يجنن..تدس عايده هانم الموبايل داخل شنطتها وتقول بضحكة عالية : لا والنبي ده عليه صورة الغالي الله يرحمه .. وتغير الحديث بلباقة معهودة قائلة : هاتلي نسكا فيه يا سعيد وشوف البنانيت يشربوا أيه .. وتلف برأسها الطويلة ناحية اليمين قائلة : أنتِ شكلك سبتي القنا اللي شغالة فيها يا مدام صفية ..لا يا حبيبتي أصل الأستاذ عزمي بيعزني أوي وشايف أني هبقا مذيعة هايلة في المستقبل آه عرفاه .. عزمي بتاع الدقي .. ده حتى كان عامل حزب واتصل بي بس أنا كالعادة بيتعرض عليا حلجات كثيرة بس النفسية بقي مش عاوزه شغل.

"سلامة نفسيتك يا قلبي" .. يقولها عمر الشبراوى وهو يعدل نظارته . ." أمال عاوزه أيه يا مدام ؟".. بصراحة كده النفسية محتاجة حضن .. ويضحك الجميع

و يعود الرجل في نفس الكافيتريا ليسأل صديقته .. إيه؟ عملتي أيه ؟.. أنا بحبك والله وعاوز أتجوزك .. تيجي أزاي ده أنا أكبر منك بعشر سنين!.. يا عسل أنتي لسه صغيره وحرام عليكي تقولي كده يا سيدي .. البيوت والزواج والهم يكبر بدري

طب قول لي يا سليم أنت ليه متجوزتش لحد دلوقتى ؟! ولم تدع له فرصة للإجابة وتتراخي على الكرسي وتحرك ساقها ببطء وأنوثة وتنادي بأعلى صوتها : "قهوة فرنساوي لو سمحت .. وشوف الأستاذ يشرب أيه .." تعرفي يا قلبي أنا مش مصدق إنك متجوزة لحد دلوقتى شكلك بتتريق يا واد يا سليم والنبي أنت فيك من زوجي، بس بقي فرق كبير بين راجل بيقدر وراجل ميعرفش غير الزعيق والخناق .

(و يضحك سليم ضحكة مايعة وهو يتابع صدرها البناتي الصغير الذي يؤكد هجران زوجها لها في السرير ..)

و في تلك اللحظة تدخل مدام سلوى .. أيه يا جماعة أنتو مطلعتوش المحاضرات ولا أيه ؟ .. وغمغم سليم قائلاً : أصل أنا هجيب المفيد في آخر المحاضرة

و بينما هم غـارقون في ملـذاتهم، يفكـرون في مكـان قضـاء سهراتهم في آخر هذا النهار وهم لا يعلمون أن المستقبل لا يبعد عنهم سوى خطوات في ذلك المدرج الكبير، حيث ينفعل الطلاب ويتحمسون في تسابق ويتحاورون مع أساتذة المواد المختلفة ..

و تقف عواطف في آخر المدرج لتقـول : "أحنـا قربنـا علـى الامتحان يا أولاد ،و أصبحنا مضغوطين والوقت بيجري" وعندها انتهى زمن المحاضرة الثانية لينزل الجميع إلى ذلك الركن بـنفس الكفاتيريا يعيدون كتابة المحاضرات بعد يـوم طويـل مـن شـرح ودراسة وعلم وأبحاث ... ومازالت تأنت أُلفـت غارقـة في لـون الساعة التي أهداها إليها ذلك الرجل الطويل.

* * *

هند انتحرت

قطعة لحم وقعت من البلكونة .. تِرَقص بأيديها ورجليها .. كلنا سمعنا كده يوم السبت الماضي .

هند وقعت من فوق أغمى عليها وهي بتنشر الغسيل، أحد أطباء المخ والأعصاب يقول : " عندها حالة نفسية سيئة "

دخلت المستشفى لزيارتها فوجدت عوضين وأم هند وصابر أبو علي ؛ فتلعثم لساني ،و لم أعرف ماذا أقول ! و كنت أشعر بالضيق والحزن على تلك الفتاة التي مازالت في العقد الثاني من عمرها

عندما نظرت إليها لم يعجبني وجهها الحزين، كانت تسبح في بركة من العرق .. مددت يدي لألامس أصابعها الجميلة المرصوصة في زراعها الأبيض الطري كعود خس غمره الندي

في صباح يوم ممطر

و قلت لها بصوت خافت : أنا أعلم كل شيء، وأعلم حقيقة علاقتك الجنسية مع حسين ابن نفيسة صاحب فتحي أخوكِ ؛ كانت ترتجف من الخوف وأنا أرمي إليها بوابل من الأسئلة.

فحالتها صعبة وأبوها يتجول في الغرفة وأمها تسابق الدموع، دكتور امتياز يتجول ذهابًا وإيابًا تتبعه تلك الممرضة ممتلئة الأرداف تحتضن أوراق بيضاء عليها سطور قليلة تشخص الحالة

ولكن فضولي كان يدفعني لمعرفة الحقيقة، فهذه عادتي في معرفة الأسباب، عدت لأسألها بلطف علي طريقة الإجابة : كم مرة قبلك فيها ؟ وكم حضن فاز به منك ؟ وكم يوم تحسس فيه جسدك ؟ وما طعم اللذة التي شعرتي بها وأنت عارية في أحضانه؟ ..

قولي الصراحة .. قولي ..فتنهدتْ، وقالت بصوت متقطع وهي تختلس النظر ناحية أمها التي مازالت تسابق الدموع .فكم من جهل يترسخ في عقول الأمهات عندما لم تبحث في أجندة ذكريات ابنتها حتى تفيق علي صدمة وكارثة ..

فالثقة لم تكن أبدًا مبرر لعدم البحث والتفتيش في حياة البنت ؛ إنما هي جناية وجريمة يجب أن تُعاقب عليها كل أم نسيت ابنتها وسط صرخات الحياة : "عشقتُ المكالمات الهاتفية .. فكم كان رومانسيًا وجميلاً .. كم كان رقيقًا كان يشعرني بأني أنثي ويعاملني كقطة صغير .. و أقسم ليّ بالتوراة والإنجيل وطربوش أبوه أنه يحبني حبًا شديدًا يا سلام لو سمعت كلامه عن الحب وصوته وهو يتنهد في التليفون ..والقبلة الواحدة كيف كانت تجعل أعصابي تنهار .. يصرخ وهو يتخيل أنه يحضني وأنا أبادله نفس الشعور ..

وبعيون قد ملأتها الدموع أكملت كلامها بصوت متقطع :
كان يراقبني كل يوم وأنا راجعة من مدرستي وهو يدخن الشيشة علي المقهى القريب من المدرسة والقلق كان يطاردني وأنا أقابله لأول مرة وسط المباني المهجورة .. فأخذ يوزع علي جسدي القبلات كأقراص المنوم والمسكنات والمهدئات ؛ فعشقت اللذة الملعونة بين أحضانه ..حتى اليوم الأسود في حياتي ..

الجمعة .. الساعة الثانية بعد منتصف الليل .. كنت أرقص وأغني في حجرتي الصغيرة كأي فتاة تفرح بأنوثتها ...

وقفت أمام المرآة لأتحسس مفاتني من داخل ذاك القميص البمبي المفتوح .. فكم كان حفل ابنة خالتي في هذه الليلة جميلاً ورائعًا !فالرجال ينظرون إليّ في عفوية مقصودة منهم، فكنت أنظر إليهم فيظنون إنها نظرة عتاب .. ولكنني كنت أتمنى أن يلتصقوا بي أكثر ..

كنت جميلة كنجوم السينما والمسرح وكواكب هوليوود، وجلست أتحسس رقبتي أمام مرآة دولابي الصغير ؛ فوقعت عيني على الهدايا المرصوصة على الأرفف وتذكرت حبيبي .. فشعرت بسخونة في جسدي وقمت إلي حقيبتي وأخذت تليفوني واتصلت به مسرعة

كانت السماء صافية وصوته يأتيني يقطع سكون الليل .. حبيبتي.. أرجوك تعالي في حضني .. حبيبي نفسي نتجوز بقى وأجد

نفسي بين ذراعيك .. أنا سعيد أوي الليلة .. و أنا كمان حاسة بأني أنثي .. آه .. هو أنا كده واهمة ؟! لا يا حبيبتي دى الحقيقة .. أنتي برنسيسة .. و أنت مجنون أنا مجنون بكِ يا عسل .. لن أتخلى عنك مهما حدث .. أنت كده بتعذبني أنتِ بتعملى إيه دلوقت ؟ .. أنا نايمه علي سريري وبحلم بالحصان الأبيض وأنا طايره معاك .. علشان أنتي عبيطة يا حبيبتي

و بدأ الكلام يذوب وسط الضحك الخافت والعيون تحارب النعاس، ولم أدر بنفسي إلا وأنا أحمل الكتب ذاهبة إلى مدرستي .. ولكن كلام الليل كان يرن في أذني ..

بدأت أقاتل الأيام وأسبقها حتى جاء أول يوم في امتحاناتي بالمدرسة الثانوية الفنية، فخرجت من المنزل قبل موعد الامتحان بساعتين بعدما طبعت أمي قبلتها علي خدي وترك لي والدي مصروفي وتوجهت لقضاء الامتحان في أحضان حبيبي الذي استأجر شقة مخصوصة بجوار المدرسة .

لا أدرى كيف مشيت إليها ولكنها كانت ليلة دافئة كرمل البحر

وسألتني في بكاء كيف سأنقذ نفسي من الطوفان ؟ لقد فشلت في الانتحار .. وأخاف أن يفضحني هذا الزمن

و قبل أن أتكلم معها وأحكي لها كيفية الخلاص من أحضان هذا العاشق الذي استغل مراهقتها واستعان بخبراته العاطفية كي

يضمها لضحاياه استغل حبها للتجربة ولكي تفخر أمام زميلتها بأنها على علاقة حب مع شاب يحضنها وأنها مرغوبة في الزواج من قبل الشباب

راحت تكون واحدة ممن ينتظرنه على هاتفه ليلاً ونهارًا، فكان هو يكرر كلامه مع كل أنثى يعرفها بنفس الطريقة، وسرعان ما ترافقه الفتيات لسبب أو لآخر وتلك هي أكبر الحماقات يرتكبها فتيات المراهقة

فهو الحب الذهني والوهم العاطفي الذي يقتل زهرة العمر عندما تتعلق بالحنين الوهمي، وتفيق ذاكرتها على الدهشة بأنها تعيش في الظلام وما زالت دهاليز قلبها فارغة بعدما أصبحت عارية أمام نفسها ؛ فلجأة إلى الانتحار وكانت وليمة للخيبة التي تعلمتها في ليالي الفراغ .

فأدرت رأسي لأجد عوضين عمها يقطع تفكيري وكأنه يعلم بكل ما كنت أنتوي قوله لها فوضع حقنة السم في المحلول الموصل بذراعها وعينه تتوعد بقتل وحرق حسنين بن نفيسة ...

عزبة عوض البيه

فين أبوك يا واد يا سعيد ؟ .. أجري يا وله وقوله جمال ابن الحاج فرج شرب سم والناس بتجري بيه على المستشفي .. أجري يا وله ..

يا خرابي .. يا لهوي .. خربت بيوتنا يا ناس .. ألف سلامة عليك يا حبيبي .. أسترها يا رب .. استرها يا رب .. سلامتك يا جمال يا بني

كانت أم جمال تجري حافية القدمين والرجال يحملون ابنها على الأعناق .. فالطريق للوحدة الصحية بعيد، وجمال شرب سمًا من نوع قاتل .. شرب تكسوفين من اللي بيرشوه للقطن

قالت أمه لأخته : جمال انتحر يا مريم .. أنا قلت الجوازة دى مش نافعة .. منهم لله اللي غصبوا عليه .. اجري يا واد يا سمير بلغ عمك لطفي .. وهاتلي المحفظة من الصندوق اللي تحت السلم و ترك ربيع الجلابية والعمة واطمئن على المحفظة في جيبه ..و جرى مع الناس وكان يضع يده من وقت لآخر على المحفظة وثمن الجاموسة داخلها ..

قال ربيع وهو يجري خلف جسد جمال المحمول على الأعناق: غصبوا عليه وأتجوزها وده آخر اللي يتجوز قريبته يا عالم يسمم نفسه ؟! .. دى حتى حراام طب هيعمل أيه .. العزبة كلها بتعمل كده ويتجوزوا من بعض ..لا يا عم ده الولد ده بيحب واحدة من مصر

كلام كثير أتقال ومحدش عرف السبب بالضبط .. وكان لزامًا على " أبى فتحي " أن يخبر البيه بما حدث صباح يوم الأحد بعزبة عوض

ولكن وحده ربيع كان يعلم ما حصل فقد كانت تجمعه بجمال صداقة قوية وكانا يتبادلان أطراف الحديث في ليالي ري الزرع فهو يعلم تلك الهواجس التي تعتري جمال وفكره الدائم في النساء وليست أي نساء

فالنساء في بلدنا ترتدي النقاب البلدي العادي جدًا والعباءة السمراء الملفوفة، وغالبًا نساء الفلاحين يميلون إلى الجسم العريض الممتلئ .

فتجدها قنبلة سوداء تتحرك ؛ ولكنها من الداخل ملبن أبيض يرطب الأعصاب .. فكم من الشباب الذي انهارت أعصابهم عندما يداعب الهواء هذه العباءة السمراء لتكشف عن قطع لحم ابيض لنساء يأكلن الفتة يوميًا وتعوم وسط لبن الجاموس وقشطة الزبدة الفلاحى .

فنحن دائمًا نكتب عن الجمال وذاكرتنا محشوة بصورة نساء ريفية مختبئة تحت النقاب المغري الجذاب ..

و في كل صباح تجدهن مجتمعات حول مطعم الفول والطعمية ويشتري البعض منهن (البرسيم) و(الجراوة) – نوع من الذرة في صورتها الخضراء- يشتريها الطبقة التي لا تعمل بالفلاحة حتى يطعمها الماعز والخرفان التي يربونها

و تبدأ السيدات في تحضير الفطار وهو عبارة عن طبق لبن من الجاموسة عند الفلاح ويلتف حوله كتيبة من الأطفال يتصيدون اللبن بالعيش في مطاردة درامية عجيبة بين اللبن السائل والعيش الطري المخبوز في الفرن البلدي الذي يرقد أمام البيت ؛ تستعين به النساء لعمل الخبز الفلاحى ذي الطعم الجميل فيلتفون في حلقات نسائية، ولا مانع من جلوس بعض الرجال بجوارهن.

منهن من تنسى أن تغلق أزار عباءتا الناعمة لتكشف عن نهود كبيرة كعادة نساء الريف ((قالها ربيع في نفسه وهو يتنهد ويتنفس الصعداء كمن يتحرش بذاك الخيال الذي اعتراه ثم عاد ليكمل الوصف)) والأخرى تتعمد إظهار فمها من تحت النقاب القصير وهي تتناول الشاي المصنوع فوق سخونة الحطب الطبيعي المصحوب بعود من الدخان، والبعض يستخدم الفرن الآلي عندما يكون ميسور الحال.

الفطار يكون فول وطعمية عند الصيادين والموظفين وميسوري الحال أو من يتصورون أنهم أوفر حظًا من غيرهم .

يمتلئ الطريق من السابعة صباحًا بالبهايم والأبقار والجاموس والحمير . في تناسق وحب ووفاء .

فوحده الريف لدينا يمارس حياته بالوفاء، فالسماء تمطر من أجل الزرع والأب يتزوج من أجل إنجاب الأولاد، والبنت تتعلم أعمال البيت من أجل الوفاء لزوج المستقبل .

و لكن العواطف ليس لها نصيب من ذلك الوفاء .. حتى بعدما خرج الشباب وتعلمت الفتاة بعيدًا عن أهلها، فتظل العادات والتقاليد لها الكلمة الأولي والأخيرة في مسالة الحب والزواج.

الرجل يركب الحمار ويمسك بطرف الحبل مربوط في عنق البقرة وخلفه الأطفال يجرون الباقي من البهائم ويسوقون الأغنام ..و صراخ ونباح طوال الطريق وشد وجذب بين الفلاح وأولاده من ناحية وبين الأولاد والبهائم من ناحية أخرى.

بيوت منتشرة علي جانبي الطريق تنحني أمامها النساء تكنس الوسخ بمقشة طويلة مصنوعة من عرجون البلح في النخل الطويل .

بعض النساء تمسك الجاموس في مساعدة لزوجها الذي لا يملك أطفال.

وقاطع فكره قول فرج : " بعت الجاموسة بكام يا ربيع ..؟ و يهز ربيع قدمه ؛ فتقفز الحمارة أسفله ويشمر ذراعه قائلاً :" وأنت مالك يا أنت يا فرج ".

فوحدهم الفلاحون يملكون القدرة على النقاش بحذر يشبه الزعل المؤجل لو طال هذا النقاش خصيصًا لو كانت أراضيهم متجاورة .. فهم يحترفون الغيرة ومقارنة أنفسهم ببعض من خرجوا وسافروا خارج البلاد، ورجعوا بحفنة الدولارات ليشتروا الأراضي الواسعة ويرتفعوا عن جيرانهم ببناء العمارات .

((وهنا حدث ربيع نفسه مرة أخرى عن خبث ذالك الرجل الذي لايلقي لابنه بالأ وهو في تلك الحال يوشك على الموت ويعود مرددا بين نفسه هواجسه)).

فالأموال وحدها قادرة عن مسح جرائم الماضي وربط العائلات ببعضها، عن طريق النسب والزواج.

و هذا ما يجعلهم يرتكبون أكبر حماقاتهم فيرمون بأولادهم طعامًا للأسماك المفترسة قبل الوصول هربًا إلى حدود الدول الأوربية بحثًا عن شراء الأراضي.

و غيره من العائلات التي تمتلك أشولة من الأموال، فهناك بيوت كاملة تدفع بأولادها خارج البلاد وتستقبلهم في صناديق تحمل علامة الموت مجانًا .

و يرجع الشباب بجيوبهم مليئة بالخيبة وعذاب الغربة، والبعض الآخر يفوز ببعض الأموال ولكنه يترك الزمن يتلاعب بخطيبته التي تبحث عن دفء جديد في الشتاء خصيصًا في أيام البرد والسقيع ..

عاوده فرج بكلامه الثقيل على نفس ربيع قائلا " يا رجل كنت عاوز أستلف منك قرشين كده وهرجعهم لك لما أحصد القمح" ولم يرد ربيع على طلب الحاج فرج وكأن السماء أنزلت عليه سهم الصمت لكن عقله كان مشغول بكلام زوجته بالأمس ".. لو البنت سعاد تكون من نصيب ابن الحاج فرج يا ولاد .. كانت تبقى قريبة .. والبيت جنب البيت، ومحدش هيغرملها حاجة".

و لم يعطِ لنفسه حتى دقيقة واحدة ليفكر .. هل سعاد تحب هذا العريس؟أم سيكون مصيرها الخراب والطلاق بعد الزواج، كما يحدث لمعظم بنات الريف بعد دخول التليفزيون والتسلل إلى النت وأصبحت لديهن الرغبة في التساوي مع بنات القاهرة في الحب والاختيار.

وحدها الأنثى الريفية مسلوبة من حق الحب وحق الاختيار وحق القبول أو الرفض ،ثم أن الريف في كل مكان تحترف فيه النساء بعض الخيانات حتى تعيش فهي تَرضى بما يريده أهلها ويبقى قلبها معلق بشخص آخر.

فالرجال لا يحبون في الريف إنما يتزوجون .. والنساء لا يتزوجن في الريف وإنما يحبون ..و يكون الفشل هو نتيجة حاصلة مسبقًا لمعظم الزيجات هناك..

"أنت مش بترد ليه يا جدع؟!" قالها فرج وهو يضرب الحمار أسفله بعصى صغيرة من خشب الزيتون. "مفيش يا فرج يا قريبي، بس البيت بيصرف وأنت عارف عايز ادفع إيجار الأرض.. والحِمل ثقيل.. والبيه مش هيصبر عليَّ.."

وكان البيه يمتلك ألف فدان زراعة قد ورثها أبًا عن جد من أيام محمد علي.. وتم تأميمهم أيام عبد الناصر، ورجعت الأفدنة مرة أخرى أيام السادات ثم ظلت في حيازة البيه حتى الآن..

أما ((المصلحة)) فهي أرض البيه التي لم يتم تأجيرها للفلاحين من أشجار فواكه وزيتون ونخيل.. وغيرها .

نادى محروس قائلا لربيع شوف أخوك يشتغل مع أبو فتحي في المصلحة النهارده "وأبو فتحي هو فلاح أيضًا ولكنه مدير للفلاحين وحلقة الوصل بين البيه وجميع الفلاحين. وأجرة العامل

في المصلحة يومياً لا تتعدي العشرين جنيهًا، ويفضلها شباب العزبة لأنها قريبة من منازلهم.

أما بعض الفتيات يَعْشَنَ حياة الحب التلقائية مع شباب العزبة وهن يعلمن تمامًا أن النصيب لن يلتفت إليهن يومًا، ولن يكون لهن سرير يجمعهم سوى الأحضان المسروقة في المناسبات.

فالأحاسيس الريفية عندما تتلاقى تكون كالرصاص الطائش الذي يصيب في مقتل.

حتى الحاج فرج هو الآخر كان قد تعود أن يغتال أحلام أولاده الشباب فيفرش لهم شقة الزواج بعد أن يحجز لهم عروسة مسبقًا.. ومن يخرج عن رغبته يكون عاقًا له.. ولا يستفيد من أمواله ويظل ينزف وحيدًا مغضوبًا عليه من الأسرة كلها .. وتصب العائلة عليه كامل اللعنات.

فغبار التقاليد دائمًا يجعل طريق الحب ظلامًا .. والفتاة التي تخاف العنوسة تقفز دائمًا فوق أكتاف أول عريس.. فدومًا لها قصص حب سرية مهددة بالهلاك.

وتبدأ المأساة عندما يرميها القدر في أحضان من لا تشعر معه يومًا بالحب. يفاجأ زوجها بأنه لا يحتضن روحًا وأنوثة، بل يشعر بأنها جثة ميتة.

ومن أين تأتي الشجاعة والاعتراض إن كنا قد تربينا على الخوف.

وصل الجميع من كل العائلات، ملتفين حول الوحدة الصحية ومعهم ربيع ذاك الشخص الوحيد الذي ألم بكل جوانب وأسباب ذالك الانتحار.

وقف الجميع في صمت طويل كذلك الصمت الذي يسبق ساعات انتظار الجثث وهو يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

ربما كان الجميع على علم مسبق بأن جمال قد شرب السم لأنه تزوج رغمًا عنه فبدلاً من أن يشرب حنان من كان يحبها وفارقها؛ وجد نفسه يتعلم الشجاعة ويقفز علي الموت بعدما تحولت حياته لموت مؤجل..

وعاد الحاج فرج يُعيد حساباته وهو ينظر في ملامح الطبيب التي تعبر عن عجز العلاج في إيقاف مفعول السموم في أحشاء جمال..

* * *

أم هالة بتوزع حلاوة

في صباح يومٌ من أيام شتاء الصقيع والبرد القارص الذي يزداد برودة علي بحيرة قارون بالفيوم، حيث يلتف الأطفال حول الجد والجدة وكبير العائلة ليستمد منهم حكايات الشتاء والتسلية والخروج من كبت الوجود في المنازل بسبب مداهمة السيول التي تحيط بالقرية والطرق الطينية التي تغوص فيها الأقدام .

وإذا بلهيب من فرح الأطفال بالخارج تقطع هذا الدفء وتجبرني علي الخروج للشارع.. فكانت أم هالة تخرج عن عادة البخل المتوارث لدي القرية وتوزع الحلوى على أطفال الشارع و بحركة ثعلب ساعدني فيها جسدي النحيف اخترقت الصفوف وصولاً ليد أم هالة.

ربما كان حبًا مني لهذه اليد الملفوفة التي تعبر عن سيدة في العقد الثالث من عمرها، تتزوج من رجل فوق الخمسين

فهذا السحر كثيرًا ما تجده في أيدي المطلقات .. فهي ملفوفة من الحرير .. مصنوعة من بلسم الحرمان بعدما غدر الزمان بهن، ولم يحجز لهن مساحة من السعادة في تجربة الحياة الزوجية الأولى.. وهذه عادة البسطاء يمكن لهم الرقص الحزين فوق أكثر من فراش

للزوجية ؛ لأنهم وحدهم البسطاء لا يأخذون قسطًا كافيًا من الحب والاختيار

إلا أن أم هالة كسرت الزمن وتزوجت من رجل جديد، لتنجب بنين وبنات وتكمل الحياة رغم أنف الزمن

فالأنثى وإن كانت تحب فإنها تكمل الحياة، وإن لم تكن تحب فهي أيضًا تتزوج وتنجب أطفالاً لتكمل بهم الحياة

حتى أن قيس قد مات وحيدًا شريدا في ذكريات ليلى وقد تزوجت ليلى وأنجبت بنين وبنات ..

احتضنتُ حبات الحلوى بعدما منحت لي أم هالة أكثر من الأطفال، فكم كانت لها نظرة ثاقبة في استخراج الرجل من مئات الأطفال ؛ ربما ساعدها في ذلك ثقافة تجارب الرجال وربما ساعدها في ذلك ثقافة اليتم والحزن

إن التجارب وحدها قادة على الاختيار

و مازال الكل يتساءل باستغراب عن سبب لما فعلت أم هالة التي احتفظت بجمالها بعد زواجها مرتين؟!.

فهناك نساء يا سيدي لا يعترفن بقهر الزمن ولا يتأثرن بمرور السنوات.

ربما كانت تدين بجزء من جمالها وخصرها الممتلئ قليلاً إلى أكل الفتة البلدي، والغوص في أنواع السمك من بحيرة قارون، وتدين

بالجزء الآخر من جمالها إلى هذا الحجاب أو النقاب الذي يتكفل بصنع بياض أكثر جاذبية وإثارة .

و تسرب الحديث وسط زخات المطر فوق جذوع الشجر اللامع وراحت أم هالة تقص الحكاية، وكان دائمًا موقعي أختبئ بجوار الموقد الذي تشتعل به النار ليخفف من شدة الرطوبة ويلتف حوله الكثير من النساء اللاتي يجمعهن صلة القرابة والجيرة.

فالريف وحده قادر على التجمع والوفاء والعطاء.. الريف أيضًا يعرف العلاقات المشبوهة لكنه هو قائدٌ إلى الأضواء .

وراودني تفكيري أن أجلس بجوار أم هالة حتى أزداد اشتعالاً فتحول الجو لدي من شتاء ممطر إلى صيف لاذع السخونة ؛ فهناك أجساد يا سيدي تشع ضوءًا وحرارة ولا تعترف بعلم الفيزياء على الإطلاق.

وراحت أم هالة تقص الحكاية:

"بالأمس كان نهاية الشهر واحتضن عم سيد زوجها المرتب ودسه في محفظته الطويلة الغنية بالجيوب - وهذه عادة موظفي القرية يحمل محفظة أطول من الطفل الرضيع - وفي أثناء رجوعه إلى المنزل وقع اختيار الحرامي على محفظة عم سيد ولما ذهب

ليفتحها وجد المرتب ٢٠٠ جنيه بالتمام والكمال ووجد ورقة الديون ملتفة حول رقبة المرتب، وعندما فتحها كانت ٢٤٥ جنيه .

وهنا تحرك قلب الحرامي وبدأ يتراجع عما فعله فذهب إلى منزل عم سيد وأعطى له ٢٥٠ جنيهًا وقال له: معلش.. أنا آسف جت معاك غلط يا عم سيد ؛ فذهبت أم هالة تحضن كيسًا من الحلوى ثمنها ٥ جنيه وهو الفارق ما بين الديون المستحقة عليهم وبين ما دفعه الحرامي ولم تمارس الأنانية وتحتفظ بما يفوق عن حاجتها ".

* * *

المحتوى

السعادة السوداء ٥

كلة عيب يا جدعان..... ١٣

لحظة يأس..... ١٧

ذات السواد..... ٢٣

الآنسة (ن)..... ٣١

أحلام عارية..... ٣٩

عشرة ولا خمستاشر ٤٥

الـ[تي شرت] اتسرق..... ٤٩

أنت ابن السيد أبو علي يا وله ؟!..... ٥٥

خبر أسود ومنيل ٦١

لجنة امتحان ٦٥

نساء حول البيتزا ٧١

هند انتحرت..... ٧٧

عزبة عوض البيه..... ٨٣

أم هالة بتوزع حلاوة ٩٢